

ثم دخلت

سنة سبع عشرة وستمائة

وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها: يوم الأحد ثاني شعبان توفي إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي علوش بن عبد الله المغربي، ودفن بجبل قاسيون، وكان عالما بالأصول، والفروع، والعربية، ونشأ له ابن فاضل في علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن علي، توفي أيضا وهو شاب رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي في رجب تقي الدين عبد الرحمن بن أبي منصور بن نسيم ابن الحسين بن علي المقدسي، أبو الحسن، سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأكثر طباق السماع عليه في الأجزاء وغيرها موجودة بخطه.

وفيها: في جمادى الآخرة توفي زين الدين أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي، المدبر لمجالس الحكام بدمشق، وكان شيخا معمرا مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعين وخمسمائة يروي عن أبي الوقت وغيره، سمعت عليه صحيح البخاري سنة أربع عشرة وستمائة، ويروي أيضا هو وأخته حفصة عن أبي الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموي رحمهما الله.

وفيها: توفي الشيخ عتيق بن سلامة الأندلسي، ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة، عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق، وكان شيخا صالحا مشهورا، زرتة في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة.

وفيها: يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي، خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين في توجهه للسمع بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد فتوفي فيها، ودفن بالجانب الغربي منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، قال: انشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:

ومروحة تروح كل هم
ثلاثة أشهر لا بد منها
حزبان وتموز وآب
وفي أيلول يغني الله عنها

وفيها: نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وأغار في أرض سنجار وساعده صاحب ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه، واتفق مع ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وعانه، فعلق نور الدين رجله تحت القلعتين وعذبه فسلمت إلى تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم، فشفع فيه فأطلقه الأشرف، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه فاشترى بستان ابن حيوس بنواحي العقبية وبنى فيه وأقام به.

وفيها: قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف إليها فأخذها، وعوض صاحبها الرقة.

وفيها: في رجب كانت وقعة البرلس بين الكامل والفرنج، وكانت وقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف، وغنم خيولهم وسلاحهم، ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

وفيها: عزل المعظم المبارك المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا.

وحج المعتمد بالناس من الشام في هذه السنة. ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار في البلاد، وحج من بغداد أقباش الناصري وقتل بمكة، وعاد حاج العراق على طريق الشام.

واستفحل أمر التاتار في هذه السنة، ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش، وقد ذكرنا صفة موته وماتم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت في سيرة الدولتين العلائية والجلالية.

وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، ووهم في ذلك وقال: قصد العراق في أربع مائة ألف، ووصل إلى همدان يريد بغداد، وقيل كان معه ستمائة جتر تحت كل جتر ألف، وكان قد أفنى ملوك خراسان، وماوراء النهر، وقتل صاحب سمرقند، وكان حسن الصورة، وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها، وكان ذلك سببا لهلاكه.

قال: ولما نزل همدان كان في عسكره سبعون ألفا من الخطا فكاتب العلقمي، يعني وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد، فاتفقوا مع الخطا على قتله، وبعث العلقمي إليهم بالأموال والخيول والخلع سرا فكان ذلك سببا لوهنه، ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همدان طالبا خراسان ونزل مرو، والتقى في طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه أن لا يطلعنه على ما دبروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده

صورة الحال ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول: خذ لنفسك فالساعة تقتل، فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولده جلال الدين وآخر فركب وسار بهما، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزانة، والخيول، والجواري، فيقال إنه كان في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك، فتمزق الجميع ونهب، وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولده جلال الدين وأخوه إلى الهند، وجاء فدلوا عليه فنبشوه، وقطعوا رأسه وأخذوه، وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد (٨٧).

وفيها: توفي الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وكان قد حالف ابن المشطوب والأمراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المعظم يمك ابن المشطوب وينفيه إلى الشرق على ما سبق ذكره لثم لهم ما أرادوا، ولما كانت وقعة البرلس.

قال الكامل للفائز: هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم، ومالملوك الشرق غيرك، وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة، فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل، وقيل إنه سم فمات، فردوه إلى سنجار فدفن عند تربة عماد الدين زنكي رحمه الله، قيل إنه مات في شعبان من السنة.

وفيها: توفي أبو عزيز قتادة بن إدريس أمير مكة الشريف العلوي الزيدي الحسيني، كان عادلا منصفاً، نعمة على عبيد مكة والمفسدين، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخاً مهيباً

طوالا، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله، ولا وصىء بساط الخليفة ولا غيره، وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، ولم يرتكب كبيرة على ما قيل وكان في زمانه يؤذن في الحرم «بحي على خير العمل» على مذهب الزيدية، وكتب إليه الخليفة يستدعيه ويقول: أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك، وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك، ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأحسن إليك فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببطشها
فأشري بها بين السورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجدين ربيع
أجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصا لها إني إذ الرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها: توفي آقباش بن عبد الله الناصري، كان مملوكا للخليفة الناصر ابن المستضىء، اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قربه الخليفة ولم يكن يفارقه، فلما كبر ولاه إمرة الحاج، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب، حج في هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلما وصل آقباش إلى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن، وسأله أن يوليه إمارة مكة، وقال: أنا أكبر ولد قتادة فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالشبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة، فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين،

فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه فقال: ماقصدي القتال فلم يلتفتوا إليه وانهمز أصحابه وبقي وحده، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى، وأراد حسن نهب الحاج العراقي، فمنعه أمير حاج الشام المبارك وخوفه من الأنخوين الكامل والمعظم ملكي مصر والشام، فأجابه وكف عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج ، وأدخل الكوس والعلم في الليل، وكان سادس عشر ذي الحجة.

قلت: وكان في حج الشام في هذه السنة شيخنا فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فأخبرني بعض الحاج في ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازل داخل مكة، فقال له: قد أخبرت أنك خير أهل الشام فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا، فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين، فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش، وزال ذلك الإستيحاش.

وفيها: مات الوزير ناصر الدين بن مهدي الذي كان وزير الخليفة ببغداد، وقبض عليه كما ذكرنا في سنة أربع وستمائة، واعتقل بدار طاشتكين وبها مات في جمادى الأولى وفتح له جامع القصر، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبارا قاسيا، وكان يدعي أنه شريف علوي، وقد طعن في نسبه.

وفيها: توفي الملك المنصور صاحب حماة، واسمه محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شجاعا محبا للعلماء، والفضلاء، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب، وصنف كتابا سماه «المضمار»^(٨٩) جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه، وأقام عنده في عشرة

مجلدات، وكان حفظ المسلمين لما هاجم الفرنج حماة في سنة إحدى وستمئة، وثبت ووقف، وكانت وفاته بحماة في شوال، ودفن عند أبيه وقام بعده ولده الأكبر الملك الناصر قليج أرسلان، ثم أخذ الكامل منه حماة وأعطاهما أخيه المظفر بن المنصور، واعتقل قليج أرسلان في الحب بمصر، فمات به على أقبح حال.

وفيها: توفي صاحب آمد الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد ابن قره أرسلان بن أرتق، وكان شجاعا، عاقلا، جوادا، محبا للعلماء، وكان الأشرف بن العادل يحبه، وجاء غير مرة إلى خدمة الأشرف إلى دنيسر وغيرها، ومات بآمد وفي صفر، وقام بعده ولده المسعود، وكان بخيلا فاسقا، وهو الذي أخذ منه الكامل آمد حمله إلى مصر فحبسه في الحب مدة، ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت.

قلت: ذكر الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب الوفيات: أن صاحب آمد المذكور توفي سنة تسع عشرة وستمئة، وهو الصحيح، وقد تصحف على صاحب هذا التاريخ سبع عشرة من تسع عشرة^(٩٠) والله أعلم.

ولقد رأيت بخط الشيخ زكي الدين أيضا في كتاب « الفوائد السفرية » أن الملك المسعود سلمان بن محمد، وهو أخو الصالح المذكور، كان متولي آمد وسقط من سطح فمات سنة ست وتسعين وخمسمئة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيها: توفي أبو عبد الله بن الخبازي، واسمه: الحسين بن أحمد بن الحسين من أهل باب البصرة، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمئة، وسمع الحديث، وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح.

قال أبو المظفر: وكان يتردد إلى جدي ويعجبه كلامه، وسمعه يوما

يحكي له أن ابن عقيل سئل فقيل له أن الحمار يزد له في السنة في ليلة واحدة فأياها هي هذه الليلة؟ فقال ابن عقيل: ما يعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا.

قال: ودخل رجل إلى الكرخ فلقيته امرأة فقالت له: أبو بكر، كيف أنت؟ فقال: أهلا يا عيشة. قالت: فأنا اسمي عيشة؟ قال: فأقتل أنا وحدي، وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقتها وكان ثقة.

وفيها: توفي شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمد بن حموية، والد أولاد شيخ الشيوخ الذين اشتهروا بالأمر والوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكر بن أيوب، وابنه الكامل محمد وذريته، وكان أبوه عمر قد ولاه نور الدين بن زنكي رحمه الله خوانك الشام، وكان يحترمه ويحبه ومات سنة سبع وسبعين وخمسة وصدور الدين بدمشق عند أبيه فولاه صلاح الدين المشيخة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري ابنته، فأولدها ابنه شمس الدين، توفي قديما، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون، وأولدها أولاده الأربعة المشهورين: عماد الدين عمر، وفخر الدين يوسف، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وسيأتي ذكر كل منهم، وكان صدر الدين قد ناب عن قطب الدين النيسابوري في التدريس بالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسة جاروخ، وانتفع بصحبته، وكان قد نفعه في بلاد العجم، ثم ولاه العادل بمصر التدريس بالشافعي، ومشهد الحسين، والنظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السعداء بين القصرين، ودار الوزارة، وكان فاضلا فقيها لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكانت له الحرمة الوافرة عند العادل ابن أيوب وأولاده؛ ولما استولى الفرنج على دمياط بعثه الكامل، إلى الخليفة الناصر يستنجد على الفرنج، فمرض بين حران والموصل، ووصل إلى الموصل في منتصف جمادى الآخرة، فتوفي بها بعلة الدرب في

الرابع والعشرين منه، ودفن إلى جانب قضيبي البان، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها: في العشر الأول من ذي الحجة توفي الشيخ عبد الله اليونيني، أسد الشام، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات، وإشارات وقد رأيت به جامع دمشق.

قال سبط ابن الجوزي: كان لا يقوم لأحد من الناس تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيام إلا لله تعالى، صحبته مدة، وما كان يدخر شيئاً ولا يمس بيده ديناراً ولا درهماً، كان زاهداً، ورعاً، عفيفاً ومالئاً طول عمره سوى الثوب الخام، وقلنسوة من جلد الماعز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة يلبسها، ثم يؤثر بها في البرد، وكان إذا لبس الثوب يقول هذا لفلان، وهذا لفلان، وقال لي يوماً ياسيدي: أنا أبقى أياماً في هذه الزاوية، وكنا بعلبك ما أكل شيئاً فقلت له: أنت صاحب القبول فكيف تجوع؟ فقال: لأن أهل بعلبك يتكل بعضهم على بعض فأجوع أنا.

قال: وحدثني عبد الصمد خادمه قال: كان يأخذ ورق اللوز فيفركه ويسفه، وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يزوره ويحبه، وكان الشيخ يمينه فما قام له يوماً قط، وكان يقول له: يا مجيد أنت تظلم وتفعل وتصنع، وهو يعتذر إليه، وكان العادل قد أظهر بدمشق ضرب قراطيس سود فقال الشيخ عبد الله: يا مسلمين انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يفسد على الناس معاملاتهم، وبلغ العادل فأبطلها، وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلي: في وفيك نزل: (إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل)^(٩٢) أنا من الرهبان وأنت من الأخبار.

وكان يستوحش من الناس فتارة يكون بجبل لبنان، وتارة يكون بالغوطة، وتارة بثنية العقاب، وتارة بضمير، وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا، وهي ظاهر دمشق بسفح الجبل المطل على قرية دومة لأجل سخونة الماء بها، وبني له على رأس العين مسجدا صغيرا يأوي إليه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته.

قال: فحكيت لي امرأة صالحة قالت: خرجت من دمشق بعد العصر فوصلت العيون بعد العشاء الآخرة، فتوضأت وطلعت إلى زيارة الزاوية، وكانت ليلة مقمرة، وإذا بالسبع قائما على باب الزاوية، ورأيتة على عتبتها فييست ولم أقدر أتحرك، فسحبت ركبتي إلى نحو القرية، فلما كان وقت السحر هرول السبع ومضى وخرج الشيخ فرآني فقال: ويلك وإيش كان عليك منه؟

قال: وكان شجاعا لايبالي بالرجال قتلوا أو كثروا، وكان قوسه ثمانين رطلا، ومافاته غزاة بالشام قط، وكان يتمنى الشهادة ويلقي نفسه في المهالك، حكى لي عنه خادمه عبد الصمد قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صافيتا والعريمة، كان الشيخ في الزاوية ببعلك فقال لي: يا صميد انزل إلى الفقيه عبد الله إطلب لي منه بغلة، قال: فأحضرت البغلة فركبها وخرجت معه فبتنا في تومين، وقمنا نصف الليل فجتنا إلى المحدثه قبيل الصبح فقلت له: لاتتكلم هاهنا، فهذا مكنم الفرنج، قال: فرفع صوته وقال: الله أكبر فجاوبته الجبال، فمت أنا من الفزع، ونزلت فصلى الفجر وركب وطلعت الشمس والطير لايطير في تلك الأرض، وإذا قد لاح من ناحية حصن الأكراد طلب أبيض فظنهم الاستبار، فقال: الله أكبر ما أبركك من يوم، اليوم أمضي إلى صاحبي وساق إليهم وقد شهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحتة بغلة ويده سيف يسوق إلى طلب الفرنج، فلما كان بعد ساعة وإذا بهم قد قربوا منا، وهم مائة حمير

وحش، قال: فانكسر قلبي وفترت همتي فقلت له: إحمد ربك فإن الله قد نظر إليك أنت واحد تريد تلاقي مائة حمار وحش على بغلة.

قال: وجئنا إلى حمص فجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه، ودخل معهم فعمل العجائب.

قال أبو المظفر: وحدثني القاضي جمال الدين بن يعقوب قاضي كرك البقاع، قال: كنت يوما عند الجسر الأبيض في مسجد هناك وقت الحر، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فنزل نهر ثورا يتوضأ، وإذا بنصراني عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر، فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ من النهر وصاح لي يافقيه تعال، فجئت، فقال: عاوني فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل، وراح النصراني، فقلت في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا، ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمار فحط الحمل، وفتح الزقاق وقلب ليكيهه وإذا به قد صار خلا، فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فبكي وقال: والله ما كان إلا خمرًا من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظهر في المسجد عند الجسر، وقعد يسبح، فدخل عليه النصراني وقال ياسيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأسلم، وصار فقيرا.

قال أبو المظفر: وحكى لي جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالسا يوما في زاويته، وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت إليه فسلمت عليه، فقال لها: من أنت؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة، قال: وما الذي جاء بك إلى عندي؟ قالت: رأيت السيدة مريم في المنام فقالت لي: اذهبي فاخدمي الشيخ عبد الله اليونيني إلى أن تموتي، قال: فقلت لها ياستي فذاك مسلم، فقالت: مالك صحيح إنه مسلم ولكن قلبه نصراني، فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ماعرفني

غيرها. فأعطاها بيتا في الزاوية فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشيخ: إيش تشتهين، فقالت: أموت على دين السيدة مريم، فقال: صيحوا بالقسيس، فجاء، فقال: خذ هذه إليك، وخذ قماشها وكان يساوي خمسمائة درهم فماتت عند القسيس.

قال: وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدق الشيخ بما خلفت.

قال أبو المظفر: كنت اجتمعت به في الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة، وكان له تلميذ اسمه توبة، وكان من الصالحين الأجواد، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة وحججت، فلما كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الحام، وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن طريقي، وقعدت عنده إلى قريب الغروب، ثم قلت له: ماتقوم نروح إلى المزدلفة، قال: اسبقني أنت في رفاق، ونزلت من الجبل، وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف، وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم علي فقلت: أين نزل الشيخ؟ ظنا مني أنه قد حج معه، فقال: أيها شيخ: قلت: عبد الله قال: خلفته ببعلك ففطنت، فقلت: مبارك فلزم بيدي وبكى، وقال بالله حدثني إيش معنى هذا؟ فقلت: رأيت البارحة على عرفات وحدثته الحديث، ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق، وحدث الشيخ عبد الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ما هو صحيح منك فلان فتى، والفتى ما يكون غمازا، فلما عدت إلى الشام عتبنى الشيخ فقلت: توبة تلميذك، فقال: لاتعد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة في حال حياته.

قال: حكى لي عبد الصمد خادمه، قال: لما كان يوم الجمعة في العشر

الأول من ذي الحجة نزل فصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شيء، ودخل الحمام قبل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد ساهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له ويحك يا داود انظر كيف غدا، فما فهم داود وقال: ياسيدي كلنا غدا في خفارتك، ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التي كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره، وكان في نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقي منها مقدار نصف ذراع، فقال لهم: لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها، قال: وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم، ويقول: ياسيدي فلانة اجتزت بها في الموضوع الفلاني اعطتني مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلي فأحسن إليه، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليها وفي يده مسبحة وقام الفقراء يتممون الصخرة، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعد نائم والمسبحة بيده، وجاء خادم من القلعة إليه في شغل فراه نائما قاعدا بحاله، فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه، فقال: يا عبد الصمد ما أقدر أقعد أكثر من هذا، قال: فتقدمت إليه وقلت: سيدي سيدي، فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتا، وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح، وكان صاحب بعلبك في الصيد فأرسلوا وراءه، فرآه في تلك الحال لا وقع ولا وقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم، فقال: دعونا نبنى عليه بنيانا وهو على حاله ليكون أعجوبة للدنيا أن الانسان يموت وهو قاعد ولا يتغير، فقالوا: اتبع السنة أولى، وطلع داود فغسله ودفع الثوبين إلى المرأتين، ولما ألدوه قال له الحفار يا شيخ عبد الله اذكر معاهدتنا عليه، قال: ففتح عينيه ونظر إلي شذرا ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله (٩٣).

ثم دخلت

سنة ثمانى عشرة وستمائة

ففيها: توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حران، وكتب صاحب ماردين ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه، فسأله فسار إلى ماردين فنزل صاحب ماردين والتقى في دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين، وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران.

وفيهما: وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى كرمان شاه قريبا من بغداد، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة، وحصن بغداد واستخدم العساكر.

وفيهما: في جمادى الآخرة استرد المسلمون دمياط من الفرنج، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة، وكان مصافيا لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصرا في حق الكامل، وكان مباينا له في الباطن، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره، وجاء المعظم فنزل حمص، ونزل الأشرف سلمية.

قال أبو المظفر: وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخيره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك فاشتبهى تروح إليه فقد سألتني عنك

مرارا، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته ومضيت إلى سلمية، وبلغ الأشرف وصولي فخرج من الخيمة والتقاني وعاتبني على انقطاعي عنه.

وجرى بيني وبينه فصول، وقلت له: المسلمون في ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام، وأنت تلعب، قم الساعة وارحل فقال: ارموا الخيام والدهليز، فسبقته إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له وصل فلان ركب والتقاني وقال: مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا بكرة يصبح أخوك على حمص فدعاني، ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب وجاء طلب الأشرف، والله ما رأيت أجمل ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة، فسر المعظم سرورا عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم: ياخوند: عوض ما ندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان مانروح إلى دمياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البندق؟ قال: نعم، فقبل المعظم قدمه، وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح الرحيل الرحيل إلى دمياط، وكان يظن أن الأشرف ما يسمح بذلك، وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحدا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فأقام إلى سلخ جمادى، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيارة في القلعة، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة.

قلت: كنت حاضرا تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميرا بعد أمير، والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا

بالظفر، ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة في سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى
فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الإسلام بعد كآبة
سرورا وأوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتنى بها
فريدا وأضحى بحرهما من نصيبه

وسمعت ممن يوثق به في مجلس شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله يقول: أنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأن هاتفا يقول له:

لا تيأسن لعسرة فـوراءها
يسران وعد أليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها
الله في أعطافها الطاف (٩٤)

قلت: والبيتان لأبي الفتح البستي.

قال أبو المظفر: وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائدا جدا فجاؤوا إلى ترعة فأرسوا إليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحدت بهم عساكر الكامل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء اسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعواهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط، وكانوا خلقا عظيما، وانقطت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كند، وثمانائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا والدوك، والدوكات، ونائب البابا، ومن الرجالة

مالا يحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح
والرهائن ويسلمون دمياط، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط
أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذهم برقابهم، فبعث إليهم الكامل ابنه
الصالح أيوب، وابن أخيه شمس الملوك، وجاءت ملوكهم إلى الكامل
فالتقاهم وأنعم عليهم، وضرب لهم الخيام، ووصل المعظم والأشرف في
تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلسا عظيما في
خيمة كبيرة عالية، ومد سباطا عظيما وأحضر ملوك الفرنج والخيالة
ووقف في خدمته أخواه المعظم والأشرف وغيرهما، وقام راجح الحلي
الشاعر فأنشده:

هنيئا فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلى الخلق فتحا بدالنا
ميينا وإنعاما وعزما مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ
سطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه
صقيلا كما سئل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو ومجدل
ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا
عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمدا

قلت: وبلغني أنه وقت الإنشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم،

وعند قوله موسى إلى الأشرف، وعند قوله محمدا إلى الكامل، وهذا من أحسن شيء اتفق .

قال أبو المظفر: ووقع الصلح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسار بعض الفرنج في البر، وبعضهم في البحر إلى عكا، وتسلم الكامل دمياط ووصلت العساكر الشرقية والشامية، وقد أخذ الكامل دمياط، وعاد المعظم إلى الشام، وأقام الأشرف بمصر عند الكامل فغير الله سبحانه القلوب، فصارا متصادقين، واتفقا على المعظم^(٩٥) .

وفيها: حج بالناس من الشام أمير يقال له شقيفات، وحج أبي اسماعيل معه تلك السنة، وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس ومعه كتاب الخليفة إلى مكة والمدينة بإعادة ولي العهد أبي نصر محمد إلى العهد، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وفيها: ولي المعظم جمال الدين المصري الوكيل، قضاء الشام، وكان يكتب في السجلات قاضي قضاة الشام وذلك في رجب.

وفيها: توفي الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي أحد الشيوخ الصالحين الساكنين بالدير بسفح جبل قاسيون، وكنت أراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي بجامع الجبل، ويده كتاب من كتب الحديث، وأخبار الصالحين يقرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة.

قال أبو المظفر: وكان زاهدا عابدا، ورعا، فاضلا في فنون العلوم، وسافر إلى بغداد، وسمع الكثير من شهدة وابن البطي، ومشايخ الشام وغيرهم، وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة فتشوش خاطره، وكان مما يغسل باطن عينيه قد قل نظره، وكانت وفاته يوم الأحد سلخ صفر،

ودفن بقاسيون عند أهله، وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحدا قط، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان: ماتروح إلى بعلبك، فقال: بلى، فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب، قلت: وسيأتي ذكر ولديه القاضي نجم الدين أحمد، والصلاح موسى.

وفيها: توفي صاحبنا ضياء الدين علي بن عبد السيد بن ظافر القوصي ابن أخت الشهاب القوصي، وكان من أصحاب شيخنا السخاوي، وشيخنا فخر الدين بن عساكر، وله شعر حسن، ومولده بقوض سنة سبعين وخمسمائة، واجازتي من الشيخ علم الدين في القرآن عندي بخطه.

وفيها: في ليلة الحادية والعشرين من رجب توفي خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسي، وكان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعي في الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق، رحمهما الله.

وفيها: أو في السنة التي بعدها في ثالث عشر رجب توفي الحافظ المحدث تقي الدين أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصري المعروف بابن الأنطاقي، كان في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحسن كتابة طبقات السماع، وحصل كتبا كثيرة، وكتب بخطه أجزاء عديدة، وكان سريع الكتابة والقراءة جدا مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه، وكانت كتبه تكون في البيت بالكلاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن.

وسمعت الشيخ التقي عمر بن الصلاح رحمه الله يثني عليه بعد موته في معرفة الحديث، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده.

قال أبو المظفر: سمع الكثير ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في طريق المنيع، وصلى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر بن عساكر بباب النصر، والجمال المصري قاضي القضاة عند قبره.

وكان سمع بمصر من البوصيري، وابن المقدسي و بدمشق من بركات ابن ابراهيم الخشوعي، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميداني، وابن عبد السميع الهاشمي وابن طبرزد، وابن سكينه، وابن الأخضر، وحنبلًا.

وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق تاريخ الخطيب وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة.

قلت: وقرأ على القاضي أبي القاسم بن الحرستاني من كتب البيهقي كثيرا، مثل: السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار، والدلائل النبوية، والآداب والدعوات.

ثم دخلت

سنة تسع عشرة وستمائة

ففيها: ظهر بالشام جراد كثير لم يعهد مثله، فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيرا يقال له السممر، يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ورتب معه صوفية، وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السممر فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السممر تبعك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندا له، وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكري كثر الجراد، فقال الناس في ذلك أشعارا، وظهر فعل المعظم للناس، وعلم الكامل والأشرف، وشاع الحديث فليل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى، ولما عاد البكري من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيهما: حج من العراق ابن أبي فراس مستقلا، ومن الشام كريم الدين الخلاطي ومعه الركن الفلكي، وخلق كثير، وكانت الهيفة الجمعة، وازدحم الناس في المسعى فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنت على عزم الحج، فخرجت على هجين إلى مسجد القدم، فجاء حوراني عليه فروة ليصافحني فنفر منه الهجين فأرمانى، فأقمت شهرين أداوي ظهري.

وحج بالناس من اليمن أطسيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه

وقال لأصحابه: إن أطلع البغادرة علم الخليفة فأكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي وينادون ياتارات ابن المقدم، فأرسل ابن أبي فراس أباه، وكان شيخا كبيرا إلى اطسيس وأخبره بها يجب من طاعة الخليفة، وما يلزمه في ذلك من الشناعات، فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل المغرب، وقيل لم يأذن، قال: وبدا من أطسيس في تلك السنة جبروت عظيم.

حكى لي شيخنا جمال الدين الحصري رحمه الله قال: رأيت اطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق.

قال: ورأيت غلمانا في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلا، قليلا، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي في المسعى، والدم يجري من ساقات الناس^(٩٧).

قلت: واستولى اطسيس على مكة وأعمالها، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم، وهو الذي بنى القبة على مقام ابراهيم عليه السلام، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن في أيامه، فرخصت الأسعار، ولعظم هيئته قلت الأشرار، وأمنت الطرق والديار.

وفيها: نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع في صحن الجامع قبالة حائط النسر، وصلي عليه هناك، وأمهم في الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفائيين شمالي الجامع خوفا من زحمة الناس في الطريق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك، وبقي

القراء، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرأون القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها، وعين لها قراء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها، وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه أعيان الشيوخ، والقضاة والفقهاء، وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة، وكان الإجتماع بايوان المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري، ويليهِ شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي محيي الدين ابن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الأمدى، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين، والفقهاء، وقبله السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمئة، كما سيأتي ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله.

وفيها: توفي قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة، قرأت على عمود قبره في تربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر: إنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها: توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج، المعروف بابن الحصري، أقام بمكة مجاورا مدة، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به، سمع أبا الوقت وابن البطي، وابن المقرب وغيرهم.

قال أبو المظفر: سمعت منه الحديث بمكة سنة أربع وستائة، وكان متعبدا لا يفتقر من الطواف، صالحا ثقة (٩٨).

وفيها: في ربيع الأول توفي بدمشق الشهاب عبد الكريم بن نجم الدين الحنبلي أخو البهاء والناصح، وهو أصغرهم، والبهاء هو الأكبر بين كل واحد والذي قبله في الولادة تسع سنين، وكان الشهاب أبرعهم في الفقه والمناظرة، والمحاكمات، بصيرا بما يجري عند القضاة في الدعاوى والبيئات، لكنه كان تعصب على شيخنا أبي الحسن في إخراج مسجد الوزير المرزقاني من يده، وجرت أمور ربما نذكر بعضها في ترجمته رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمة واسعة.

قلت: وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب من هذه السنة استقل القاضي جمال الدين أبو الفضائل يونس بن بدران بن فيروز الشافعي، المعروف بالمصري بالقضاء في دمشق، وماعها من البلاد الشامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدم ذكره في سنة ست عشرة وستائة.

وفيها: توفي المحدث أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنطاقي ليلة الاثنين ثالث عشر رجب بدمشق، ودفن من الغد بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

ثم دخلت

سنة عشرين وستمائة

ففيها: عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق، فتلقيه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه، وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السحر فساق ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله، وصار يطوي البلاد إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلط لما سافر إلى مصر، وجعله ولي عهده بعد أن عينه ومكنه في جميع بلاده، فسولت له نفسه العصيان، وأعانته عليه قوم آخرون: أخوه المعظم وابن زين الدين صاحب إربل، والمشاركة وقالوا: نحن ورائك.

ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتب إليه: يا أخي لا تفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ما ينفعونك. فأظهر العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلط، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف، فسار المعظم إلى حمص، ووصل إلى حماة ونزل على جبرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل إليه ولافتح له الباب، فأقطع بلاد حماة وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل.

وفيهما: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها: توفيت والدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل في طريق قريب الإماج والمغر إلى جانب الوادي، وأرجو أن أدفن عندها، وكانت وفاتها يوم السبت سادس رجب، وكانت دينة صالحة رضي الله عنها.

وفيها: توفي الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي الصلاحي، والد الظهر ابن سنقر.

قال أبو المظفر: كان مقبياً بحلب، ثم اتصل إلى ماردين فخاف الأشراف منه فبعث إلى أخيه المعظم وقال: مادام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي، فأرسل المعظم ابنه الظهر غازي بن سنقر إلى أبيه وقال: أنا أعطيه نابلس وأي شيء أراد، فجاء الظهر إلى ماردين وعرف المبارز رغبة المعظم، وأنه يقطعه من الشام أي شيء أراد فقال له صاحب ماردين: لا تفعل فهذه خديعة، فأبى وسار إلى الشام في سنة ثمان عشرة، ووصل إلى دمشق، وخرج المعظم للقائه ولم ينصفه، وجاء فنزل في دار شبلى الدولة الحسامي التي انتقلت إلى الصوفية عند مدرسته بجسر كحيل، فأقام بها والمعظم يعرض عنه ويأطله باليوم وغد حتى تفرقت عنه أصحابه، وكان معه جملة من المال، والخيل العربية المنسوبة، والجمال، والبغال، والسلاح والمهاليك شيء كثير ففرق الجميع في الأمراء الأكابر.

قال: وكان جاري لأنني كنت مقبياً بتربة بدر الدين حسن على ثورا، وكان يزورني وأزوره، ويشكو إلي اعراض المعظم عنه، وما فعل به ولده الظهر وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليه، ووقع إلي كتاب فيه حديث ملوك اليمن فبينما أنا قاعد أقرأه دخل فقال: إيش تقرأ؟ قلت: أخبار ملوك اليمن، فقال: إقرأ علي، فقرأت فلان الملك عاش ألف سنة ومات بالغم، وفلان عاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت من هذا الجنس، فقال: وأنا أموت بالغم وكان طول النهار يجلس مغموما مغموما ونها فيه العذل حتى انقطع أكله فأقام عشرين يوماً لا يدخل في فيه إلا الماء،

ومات كمدا في شعبان في دار شبل الدولة كافور، فقام كافور بأمره أحسن قيام، وجهزه أحسن جهاز، وكان صديقه من أيام شمس الدولة أخي ست الشام لأبيها، ويقال إن المبارز كان مملوك شمس الدولة، واشترى له كافور تربة على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف درهم، وحضر جنازته خلق كثير عظيم لأنه كان محسنا إلى الناس، ولم يكن في زمانه من الصلاحية وغيرهم: أكرم منه ولا أشجع، وكان له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره، ولما مات وجدوا في صندوقه دستورا فيه ما أنفق في نعال الخيل، وذلك ثمانية عشر ألف درهم، فسألت كاتبه عن ذلك فقال: ما يتعلق هذا بنعال دوابه، وإنما كان يستعرض الفرس السمين بخمسة دنانير وأكثر فينعله أولا قبل أن يركبه، ثم يركبه فإن صلح أعطى صاحبه ثمنه وخلع عليه، وإن لم يصلح أعطى صاحبه مائتي درهم واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجرت عقيب ذلك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثم ركب فلم يصلح، وجاء صاحبه يطلبه، فقال الأمير لغلامه: إقلع نعاله وأعطه صاحبه.

قال: وما كانت الدنيا تساوي عند المبارز قليلا ولا كثيرا، ولقد حكى لي ابنه الظهير قال: وصل مع أبي إلى الشام ذهب، وجمال، وخيل، وغيرها ما قيمته مائة ألف دينار، ومات وليس له كفن، وما كفنه إلا شبل الدولة.

وفيها: توفي عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي، المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجدته أبو يعلى حمزة، هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه، سمع عز الدين الحافظ أبا القاسم بن عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاج الدين الكندي، ملازما له وانتفع به، وكان كيسا متواضعا وتوفي شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيها: توفي محمد بن سليمان بن قتلмыш بن تركمانشاه أبو منصور السمرقندي، ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وبرع في علم الأدب وولي حجة الباب للخليفة ومن شعره:

سئمت تكاليف هذه الحياة
وكرر الصباح بها والمساء
وقد صرت كالطفل في عقله
قليلا الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس
وأسهر عند دخول الفناء
وقصر خطوي قيد المشيب
وطال ما عناني عناء
وغودرت كالطفل في عيشه
وخلفت حلمي ورائي وراء
وما جر ذلك غير البقاء
فكيف ترى فعل سوء البقاء

وكانت وفاته في ربيع الآخر ودفن بالشونيزية.

وفيها: توفي الضياء بن الزراد دمشقي، كان قارئاً طيب النعمة صيتاً عالماً بالقراءات، وكان فقيراً سافر من دمشق إلى ميفارقين، واتصل بصاحبها شهاب الدين بن العادل وأقام عنده، ثم اتصل بالأشرف بن العادل.

قال أبو المظفر: واجتمعنا بخلاط سنة ثلاث عشرة وستائة، وكان يتردد إلينا ويقراً طيباً صحيحاً، ثم خلط ودخل معهم في ما هم فيه، وجاءني يوماً وهو نادم حزين يبكي فسألته عن حاله فقال: البارحة حضرت عند الأشرف وناولني قدحا من الخمر فامتنعت من شربه،

والأشرف ساكت ينظر إلي، ومازالوا بي حتى شربته فلما حصل في جوفي
عض الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: واللك فعلتها
حطيت الخمر على مائة وأربع عشرة سورة، والله لو خيرت أن أحفظ
القرآن كما تحفظ، وأدع ملكي لاخترت حفظ القرآن، ثم نزلت حرمة بعد
ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له
عليهم، فخرج من حران في هذه السنة قاصدا السويداء ومعه غلمان
مردان ثلاثة، فنام في واد وقت الظهيرة فقتلوه وأخذوا خيله وقماشه وماله
فبلغ الحاجب عليا فأرسل خلفهم فجاء بهم فقتلهم (١٠٠) .

وفيها: توفي الشرف محمد بن عروة الموصلية المنسوب إليه المشهد بغربي
الجامع بدمشق، وإنما نسب إليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع
ف عزلته وبيضه، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله
ووقف فيهما كتبا، وجعله دار حديث، ووقف على الشيخ المسموع به وعلى
السامعين وقفا، وذلك قبل سنة عشرين وستمائة، ثم بعد ذلك أمر
المعظم بجمع الخزانة المفرقة في الجامع، فنقل ما فيها من الكتب الموقوفة
إلى المشهد المذكور، وبنى لها خزائن في شرقه وغربه، وجدد ابن عروة
المذكور في المشهد المذكور بركة علي يمين الداخل إليه .

قال أبو المظفر: كان ابن عروة مقيدا في القدس، ويدخل المعظم
وأصحابه ويعاملهم ويؤذي الفقراء والمشايخ وخصوصا الشيخ عبد الله
الأرمني فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خرب القدس نزل ابن عروة
إلى دمشق فأقام بها يسيرا، ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين (١٠١) .

وفيها: توفي في المحرم الشيخ عبد الرحمن اليميني الذي كان مقيدا
بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوالين للحق عند
الملوك وغيرهم، على وجهه أنوار الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجت

الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب جماعة للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين، وكان هذا اليمني أبلغ الجماعة كلاما في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهدا، ورعا، فاضلا منقطعا عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصوفية.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن الروزبهاري المدفون خارج باب الفراديس الأول، في البرج المستجد رحمه الله.

وفيها: فجع الناس بوفاة إمامين كبيرين شيخي مذهبي الشافعية والحنابلة علما وعملا، أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم، وهذا البيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا، وأجلهم في زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر، وفي القرن الذي قبله عماء الصائين هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم، وأخوه الفخر تاج الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبي البركات بن الرائي، وهو الذي جدد عمارة مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبر، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الرائي وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيرا ما يكون زائرا لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضا أخوه تاج الأمناء، وأسماء المذكورة هي أخت أم القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو ابن خالتهم، اهتم الشيخ فخر الدين رحمه

الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابناً سماه باسم جده قطب الدين مسعود، ولو عاش خلف جده ووالده لأنه كان مهتماً بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفي قبل والده بزمان، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية، وهي قاعتان احدهما التي كان هو ساكنها وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من ايوان المدرسة، و الأخرى لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد موته على المدرسة، ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية، وكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التدريس بالمدرسة التقوية، وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام؛ وكان اذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق في البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى، ومتى احتاج إلى طهارة خرج منه إلى المئذنة الشرقية ففضى حاجته بمكان الطهارة المجدد فيها خارج حائطها الكبير، وبها الماء الجاري، ثم يرجع إلى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به، ولا يملون من النظر إليه لحسن سيرته واقتصاده في لباسه و لطفه و نور وجهه وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق و خراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة » للحافظ أبي بكر البهقي وغيره، وكان

رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يبكي منها، ويردد مواضع المواظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :

في الـ ذاهبين الأولـ
ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـوارد
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي بعدها
تمضي الأصاغر والأكابـر
أيقنت أني لا محـا
لـة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكي، سألته مسائل من الفقه وكتبت إليه أبياتا أطلب فيها اجازة برواية ما يجوز له عنه روايته وذلك في سنة ست عشرة وستائة، فأجابني نظما بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها، وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخطه وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصده
وأسعدته بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم
بصير بما فيه طريق سداده
فهنأه ربي بالعلوم وجمعها
وبلغته فيها سننى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية، وبمشهد ابن عروة أول ما فتح ، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين عن قضاء الشام، أرسل إليه أن يتولاه فأبى ، فطلب عنده ليلا، فجاء فالتقاه وأقعدته إلى جانبه ، فجلس محتبيا مستوفزا(١٠٢) فأحضر الطعام قلم يمد يده إليه ، ولم يأكل منه

شيئا، فسأله أن يتولى القضاء ، و كثر عليه القول في ذلك . فقال : حتى استخير الله تعالى ، فأخبرني من كان معه ملازما له . قال: فلما رجع إلى بيته جدد الوضوء ، ووقف يصلي ويتضرع و يبكي الى الفجر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عادته ، ثم دخل بيته الصغير الذي في الحائط ، و هو الباب الذي كان يخرج منه خلفاء بني أمية وامراؤها إلى الصلاة من لدن معاوية بن أبي سفيان إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما أخذ الوليد من النصارى جهتهم الغربية و بنى القبة و النسج جعل المحراب في وسط ذلك ، فهو الذي مقصورة الخطابة اليوم ، و الباب الأصغر فيها الذي بين المحراب و خزانة مصحف عثمان رضي الله عنه هو الباب الذي كان يخرج منه الوليد و من بعده من الخلفاء و الأمراء إلى الصلاة بالناس ، و أما الباب الكبير الخارج من المقصورة الذي يخرج منه الخطباء فهو كان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يؤذن لهم في ذلك من جهة الجامع ، و قد بينا ذلك أيضا في مختصرنا لتاريخ دمشق ، فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسل السلطان قد جاء و ا في كشف ما فارقهم الشيخ عليه : الجمال المصري، والنجم خليل وغيرهما ، فردهم وأصر على الامتناع و أشار بتولية الشيخ جمال الدين بن الحرستاني، فولي وكان قد خاف أن يتأذى من جهة السلطنة ، فجهز أهله للسفر ، و خرجت المحائر إلى ناحية حلب فردها العادل و عز عليه ما جرى ، فقليل له: احمد الله تعالى أن في بلادك و في زمانك من امتنع من ولاية القضاء و اختار الخروج من بلده على التولية دينا و زهدا ، و كان رحمه الله كثيرا إذا قام من الليل يؤذن للفجر بنفسه كان في مدرسته أو خارج البلد من بستان و غيره .

و بلغني أنه كان لا يأكل وحده و إذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مدرسته ممن حضر من يأكل معه، و كان يتورع عن المرور في رواق الجامع الذي فيه حلقة الحنابلة ، خوفا من أن يأتوا بالوقعة فيه، وذلك

أن الجهال منهم و العوام كانوا يبغضون شيوخ بني عساكر ، لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأشعرية ، و كان إذا جاء إلى الجامع من ناحية باب البريد يمر في صحن الجامع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة ، و إذا قام من اسماع الحديث تحت قبة النسر ينعطف و يخرج من باب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك يا ولدي: أخاف أن يأثموا بشيء ، و بلغني عنه أنه كان يقول: من طلب من غيره مهالا يعطيه من نفسه فهو داخل في (المطففين الذين إذا اکتاولوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (١٠٣) و هذا كلام في غاية الجودة ، وكان العادل لما أمر ببناء مدرسته المشهورة قد عزم على أنها تكون للشيخ الفخر، و اتفق أن العادل توفي قبل كمال عمارتها ، و كان ابنه المعظم حنفي المذهب، كان في نفسه من الشيخ الفخر لما انكر عليه اظهار الخمر و تضمينها فتركه حتى حج في ولايته ، فأخذ منه المدرسة التقوية، و أخذت منه قبيل ذلك الناصرية التي بالقدس ، و لم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلة جاريها مع كثرة مصروفها ، ثم لما تكاملت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصري، و تركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ و الفقهاء بعده.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: ولد فخر الدين في سنة خمس وخمسمائة ، وكان زاهدا، عابدا، ورعاً منقطعاً إلى العلم والعبادة ، شيخاً حسن الأخلاق قليل الرغبة في الدنيا ، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر رجب ودفن على الشرف القبلي عند مقابر الصوفية (١٠٤) وكان له جنازة عظيمة ، وقبره ظاهر يزار ، وصلى عليه الملك العزيز بن العادل، ولم يتخلف عن جنازته إلا القليل ، سمع عميه أبا القاسم الحافظ، و الصائغ هبة الله، و القطب النيسابوري (١٠٥) و غيرهم.

قلت : أخبرني من حضر وفاته، قال: صلى الظهر يوم توفي ثم جعل يسأل عن العصر فقبل له لم يقرب وقتها ، فدعا بباء ثم تشهد و هو

جالس ، وقال: رضيت بالله رباً . و بالاسلام ديناً و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، لقنني الله حجتي ، وأقال عثرتي ، ورحم غربتي ، وأنس وحدتي ، ثم قال : وعليكم السلام ، فعلمنا أنه حضرته الملائكة حينئذ و سلموا عليه ، ثم انقلب على قفاه عقيب قوله و عليكم السلام ميتاً رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكي ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمان وغيره ، و كان قد اجتهد في مرضه في تملك المكان الذي دفن فيه من مستحقه ، حفر له القبر و هو حي وكان مرضه بالاسهال ، و كانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب و احتشد الناس من الغد لجنائزه و خرجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فإذا الناس في الجامع كهيئتهم يوم الجمعة ، فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلي قريب اللازوردة ، و تقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمان ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشرف القبلي، وقد امتلأت الطرق بالناس و من الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره، ولولا كان الأمير عز الدين أيك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع أصحابه، و أجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدبابيس و العصي يمنعون الناس من قربه لتعذر وصوله إلى حفرتة في يومه ، و قبره على يسار المار مغرباً في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل ، و جعل على قبره بلاطة فيها اسمه و تاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى.

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين أخو الشيخ أبي عمر. كان إماماً من أئمة المسلمين ، و علماً من أعلام الدين في العلم و العمل ، صنف كتباً كثيرة حسناً في الفقه وغيره ، و لكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات و الكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان

من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته في العلم و معرفته بمعاني الأخبار و الآثار ، وسمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله ، و فاتني منه نحو ورقتين ، عند باب استقبال القبلة بساعه من أبي زرعة، و سمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين و غير ذلك ، و مولده في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة بأرض نابلس ، و وهم ابن الدبيثي في ذكر مولده ، وقال : سمع ببغداد سعد بن نصر بن الدجاجي ، و الفضل أحمد بن صالح بن شافع ، و أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن تاج القراء ، و الكاتبة شهدة و غيرهم . و حصل طرفا صالحا من الفقه والأصول ، و عاد الى دمشق و توفر على الاشتغال بالفقه و تدريسه، و حدث بشيء من مسموعاته.

قال أبو المظفر : ولد في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة و سافر الى بغداد مرتين : احدهما مع الحافظ عبد الغني سنة احدى وستين، و الأخرى سنة سبع وستين ، و حج سنة ثلاث و سبعين ، و سمع خلقا كثيرا ، و تفقه على مذهب الامام أحمد ، و عاد إلى دمشق و كان إماما في فنون ، و لم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر و العماد أزهدي و لا أروع منه ، و كان كثير الحياء عزوفا عن الدنيا و أهلها ، لينا متواضعا ، محبا للمساكين، حسن الأخلاق جوادا سخيا ، من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، و كان النور يخرج من وجهه، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعا من القرآن ، و لا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة ، و كان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون، و حكى أبو عبد الله بن فضل الأنطاكي قال: قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة ، و أعطيتها كل يوم ألف درهم ، قال: ثم جئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلي و تبسم و قال: إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها.

و حكى أبو الحسن علي بن حمدان الجراحي قال : كنت أبغض

الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد ، فمرضت مرضاً شنج أعضائي و أقمت سبعة عشر يوماً لا أتحرك وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ على آيات و رقائي و قال: (و ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١٠٦) و مسح على ظهري فأحسست بالعافية و قام ، فقلت يا جارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت و غاب عن عيني فقممت من ساعتني إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق و صافحته فعصر يدي و قال: احذر أن تقول شيئاً ، فقلت : أقول ، و أقول.

و قال قوام جامع دمشق: كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج و يعود فتغلق على حالها (١٠٧) .

قلت كان الموفق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري (١٠٨) و يخطب يوم الجمعة اذا حضر فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الامام ، و إمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلي فيه الموفق إذا كان في البلد ، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغني ، و بعد موت العماد كان يصلي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني ما لم يحضر الموفق، و كان بين العشائين ينتفل حذاء المحراب ، و جاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به و لم يتجاوز في صلاته ، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرج الدولعي بالرصيف، و يمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ما تيسر ليأكلوه معه، و من أظرف ما حكى لي عنه أنه كان يجعل في عمامته ورقة مصور فيها رمل يرمل به ما يكتبه للناس من الفتاوى و الاجازات و غيرها، فاتفق ليلاً أن خطفت عمامته فقال لحافظها : يا أخي خذ من العمامة الورقة المصورة بها فيها، ورد العمامة أعطي بها رأسي، و أنت في أوسع الحل مما في

الورقة، فظن الخاطف أنها فضة ، ورآها ثقيلة فأخذها ورد العمامة ، و كانت صغيرة عتيقة فرأى أخذ الورقة خيرا منها بدرجات ، فخلص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف ، و كانت وفاته يوم السبت يوم عيد الفطر أول شوال ، ودفن بجبل قاسيون خلف الجامع المظفري في مقبرتهم المشهورة ؛ و كانت أيضا جنازة عظيمة ذات جمع وافر ؛ امتد الناس في طرف الجبل فملئوها .

قال أبو المظفر : حكى اسماعيل بن حماد الكاتب البغدادي قال: رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رفع من جامع دمشق إلى السماء ، فلحقني غم شديد ، فتوفي الموفق يوم العيد .

قال: و رأى أحمد بن سعد أخو محمد بن سعد الكاتب المقدسي - قال: و كان أحمد من الصالحين - قال: رأيت ليلة العيد ملائكة ينزلون من السماء جملة و قائل يقول : انزلوا بالنوبة، فقلت: ما هذا؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب

قال: وقال عبد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيون يوم عيد الفطر.

قال: وكنا بجبل بني هلال فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءا عظيما، فظننا أن دمشق قد احترقت، و خرج أهل القرية ينظرون إليه، فوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد، و دفن بقاسيون.

وقال : و كانت وفاته بدمشق و حمل إلى قاسيون، و كان له جمع عظيم، سمع الشيخ عبد القادر ، و أبا الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان، و أبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، و أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور ، و أبا محمد بن الخشاب، و جدي يعني أبا الفرج بن الجوزي و غيرهم ببغداد ، و سمع بمكة أبا محمد

المبارك بن الطباخ، و بالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي
الخطيب، و بدمشق والده أحمد ، و أبا المكارم عبد الواحد بن مسلم بن
هلال، و أبا المعالي عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السلمي،
و خلقاً كثيراً.

قال: وأنشدني لنفسه:
أبعدياض الشعر أعمار مسكنا
سوى القبراني إن فعلت لأحق
يخبرني شيبتي بأني ميت
وشيكاً وينعاني إلي فيصدق
تخرق عمري كل يوم و ليلة
فهل مستطيع رتوم ما يخرق
كأني بجسمي فوق نعش ممدد.
فمن ساكت أو معول يتحرق
وإذا سألو عني أجابوا وأعولوا
وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت في صدع من الأرض ضيق
وأودعت لحدافوقه الصخر مطبق
ويثو على التراب أوثق صاحب
ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيارب كن لي مؤنسايوم وحشتي
فإني بما أنزلته مصدق
وما ضرتني أني إلى الله صائر
ومن هو من أهلي أبر وأوثق

قال : و كان له أولاد: أبو الفضل محمد، و أبو العزيمى، و أبو المجد
عيسى، ماتوا كلهم في حياته و لم أدرك منهم غير عيسى، و كان من
الصالحين، و أم الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سعد
المقدسي؛ و كان له منها بنات صفية ، و فاطمة و لم يعقب من ولد

الموفق سوى عيسى، خلف ولدين صالحين و ماتا وانقطع عقبه (١٠٩)
ونقلت من خطه:

لا تجلسن بياب من
يا أبى عليك دخول داره

وتقول. حاجاتي إليه
يعرفه وإن لم أداره
وأتركه وأقص درهما
يقضي ورب الـ دار كـاره

ثم دخلت

سنة احدى و عشرين و ستمائة

ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وسلمها إلى مملوكه أيبك و إلى الحاجب علي، و نزل غازي إلى ميا فارقين.

وفيها: ظهر جلال الدين خوارزم شاه في أذربيجان ، و استولى عليها ، فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاه السميساطي يقال له الملق في رسالة و اتفق المعظم و مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع الخوارزمي على الأشرف ؛ وبعث المعظم ولده الناصر داوود إلى زين الدين رهينة، و عبر الفرات عند الحديثة و مضى إلى إربل.

و فيا استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أن محمود بن القاهر قد مات ، و قد أمر بخنقه كما سبق ذكره.

و فيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التي بين القصرين بالقاهرة ، و جعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخطاب بن دحية ، و قد اجتمعت به فيها في سنة ثمان و عشرين كما سنذكره.

و فيها : قدم الملك المسعود أطيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعا في أخذ الشام من عمه المعظم ، و كان معه من الهدايا شيء عظيم، من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير و يدعى بالملك و عليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، و قبالة راكب على رقبتة و بيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد، و خرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواها فوضعت رؤوسها بين

يدي الكامل خدمة له ، و كان في الهدية مائتا خادم و أحمال عود وند
ومسك و عنبر و تحف اليمن .

وفيها: جرت بالعراق واقعة عجيبة : ببغداد قرية يقال لها بعقوبا فيها
نخل كثير ، و لها ناظر متشيع ، و كان بها رجل من أهلها له نخل
فصادره الناظر و أخذ منه ألفي نخلة فجعل يسب الناظر و يدعو عليه؛
و بلغ الناظر فأحضره و أمر بضربه فقال له : بالله عليك انصفتني .
فقال: قل . قال: أنتم تسبون أبا بكر و تقولون أخذ فذك من فاطمة
وانما في فذك نخيلات يسيرة، تأخذ أنت مني ألفي نخلة و أسكت؟
فضحك الناظر و رد عليه نخله .

وفيها : حج بالناس من بغداد ابن أبي فراس، و من الشام شجاع
الدين علي بن السلار .

وفيها: حججت من الشام مع والدي رحمه الله على طريق تبوك
والعلاء ، و هي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئا
مريئا من رخص الأسعار والأمن في الطريق الشامية و بالحرمين، أما في
المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم
عيسى ، فكان يدير الحرس على الحاج الشامي ليلا ، و أما مكة فبسبب
أنها صارت في المملكة الكاملة السعودية ، فانقمع بها المفسدون وسهل
على الحاج أمر دخول الكعبة، فلم يزل بابها مفتوحا ليلا و نهارا مدة
مقام الحاج فيها ، و كان الكامل قد أرضى بني شيبه سدنة الكعبة بهال
أطلقه لهم عوضا عما كانوا يأخذونه باغلاق الباب، و فتحه لمن أرادوا
وكان الناس ينالون من ذلك شدة، و يزدحمون عند فتح الباب و يتسلق
بعضهم على رقاب بعض و ينكسر بعض و يشج بعض ، فزال ذلك
عن الناس بتلك السنة و ما بعدها مدة بقاء مكة في المملكة الكاملة،
وكان قد بلغني صعوبة ذلك و كنت حاملا هم، فلما دخلت من باب

بني شيبة ، ووقع نظري على البيت شرفه الله تعالى إذ الباب مفتوح
والسلم منصوب و الناس طالعون إليه ونازلون من غير إزدحام فمن
فرحي بذلك و خوفي من أنه لا يدوم عجلت في طواف القدوم ؛ و
دخلت البيت عظمه الله تعالى ؛ و قضيت منه وطري اللائق بذلك
الوقت ، و عندي من الشوق المبرح ما كفى ، ثم كررت الدخول إليه
ليلا و نهارا فكننت أصادف فيه نحو العشرة و ما دونها . و من أعجب
ما سمعت من بعض الحجاج أنه قال : دخلته ليلة فوجدت فيه إمرأتين
قاعدتين تتحدثان كأنهما في بيت لهما قد أمنا من يزعجهما عن ذلك لا
من سادن و لا من زحمة .

و اجتمعت في هذه السنة بالشيخ الحجة أبي طالب بن عبد المحسن
ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي، الأبهري ، و سمعت عليه و
على غيره بالمسجد الحرام، و كان يقدم كل عام من بغداد على بعض
سبلانات الخليفة ، ثم بلغني أنه تولى إمامة المقام بمكة و توفي بها رحمه
الله، و اجتمعت بها أيضا بالشيخ المقرئ، عثمان بن أحمد بن يذال
الإربلي الحنبلي و أنشدني بالمسجد الحرام:

أيانأثما في ظلام الدجى

تيقظ فصبح الدجى قد أضأ

أثاك المشيب ولوعاته

وولى شبابك ثم انقضى

فلو كنت تذكر ما قد جنيت

لضاق عليك اتساع الفضا

و نظمت في طريقي في تلك السفرة قصيدة ميمية ذكرت فيها المنازل
من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها:
مازلت أشتاق حج البيت والحرم
وأن أזור رسول الله ذا الكرم

وهي طويلة أقول فيها تعبيراً عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعاً

وشرعوا نحو ذلك البيت حاسرة

رؤوسهم بين مطواف ومستلم

والباب أطلقوه للحجيج فلم

يروا به مانعاً طول مقامهم

وفيها: توفي ببغداد أحمد بن محمد بن علي القادسي الضرير الحنبلي
والد صاحب الذيل على تاريخ أبي الفرج بن الجوزي .

قال أبو المظفر : كان حنبلياً خشنا طلب الخليفة المستضيء من يصلي
به التراويح في رمضان فأحضروا القادسي وقالوا: إيش مذهبك ؟
قال: حنبلي، قالوا: ما يمكن أن يصلي بدار الخلافة حنبلي، فقال
القادسي: أنا حنبلي و ما أريد أن أصلي بكم . و سمعه الخليفة فصاح
صلي على مذهبك. قال: و كان ملازماً لمجالس جدي و تراه هزه كثيراً،
ويستحسن الكلام، و كلما ذكر جدي شيئاً يصيح: والله إن ذا مليح،
فبعث إليه جدي يستقرض منه عشرة دنانير فاعتذر، و قال ما هي
عندي، و صار يحضر المجالس و لا يرى هزه فسمعت جدي يقول في
داره: هذا القادسي ما يقرضنا شيئاً و لا يقول والله إن ذا مليح ،
وكانت وفاته في شوال و دفن بباب حرب. (١١٠)

وفيها: توفي بدمشق الشيخ عبد الرحمن اليميني في المحرم، و دفن
بمقابر الصوفية و قد سبق ذكرنا له في سنة عشرين متابعة لأبي المظفر
سبط ابن الجوزي ، و انها كانت وفاته سنة احدى وعشرين

ثم دخلت

سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ففيها: في ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين إلى دقوقا ففتحها عنوة وأوقع السيف في أهلها، ونهب أموالهم ، و سبى حريمهم وهتك نساءهم و أحرق البلد و هدم سوره و كانوا قد عصوا عليه وسبوه من الأسوار ، و بالغوا في شتمه ، و عزم على قصد بغداد فانزعج الخليفة و أخرج المال وفرق في العساكر ألف ألف دينار ، و نصب المجانيق على الأسوار ، و فرق السلاح، و فتح الاهراء

قال أبو المظفر : حكى لي المعظم عيسى رحمه الله قال: كتب إليّ يقول: تحضر أنت و من عاهدني و اتفق معي حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك أبي و مجيء الكفار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطأ و تواقيعه لهم بالبلاد و الخيل و الخلع، قال المعظم : فكتبت إليه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين ،

قال: و بينا هو على قصد بغداد ، و كان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه أدركنا فما لنا بالكرج طاقة ، و بغداد ما تفوت فسار إلى تفليس فخرج إليه الكرج فضرب معهم مصاف فقتل منهم سبعين ألفا و فتح تفليس عنوة، و قتل منهم سبعين ألفا فصار مائة ألف، وذلك في سلخ ذي الحجة.

وفيهما: صلب المعظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب ، و خلفه جماعة و رفيقا له منكسين على رؤوسهما ، و كانوا ينزلون على الناس في البساتين و يقتلون وينهبون و المعظم في الكرك ، و بلغه أن ابن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل و كان صاحب بصرى : أنا آخذ لك دمشق ، فكتب

إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي و رفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان ، فأقاما أياما في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما و لا يقدران على طعام ولا شراب إلى أن ماتا ، مات ابن الكعكي أولا و كان يستغيث كثيرا و يقلق ، و كان رفيقه أجلد منه و أصبر ، و كان رجلا خياطا ادم اللون، و قيل أنه كان بريئا مما رمي به فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه ، و كان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة له أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك .

قال أبو المظفر : و قدم المعظم دمشق بعد ما ماتا فمرض مرضا عظيما اشفى منه، ثم أبل و لم يزل ينتفض عليه حتى مات

و فيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس و من الشام الشجاع علي بن السلار. (١١١)

و فيها: حججت أيضا راكبا في المحمل السلطاني المعظمي ، و كنت أيضا حججا مباركا كثير الخير و الأمن في الطريق و الحرمين و باب الكعبة مفتوح للحاج مدة مقامهم ليلا و نهارا، و خرجت يوم التروية و بت أنا ورفيقي الشهاب غازي الناسخ الفقيه رحمه الله ليلة يوم عرفة بمسجد الخيف بمنى؛ ثم أصبحنا وتوجهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات فمررنا على تلك الآبار بمنى و المزدلفة ، و حدود الحرم و حدود عرفة والمسجد الذي بعضه من أرض عرفة وبعضه ليس من أرض عرفة، ثم توجهنا إلى الموقف شرفه الله تعالى فنحن بعرفات و قد جاءنا الخبر مع حاج العراق ، بوفاة الخليفة الناصر أحمد بن المستضى ، في أواخر شهر رمضان ، و أقام في الخلافة ما لم يقم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة إلا قليلا ، و تولى بعده ولده ولي عهده أبو نصر محمد و لقب بالظاهر بأمر الله ، فأظهر العدل، وأحسن السيرة، ثم لم تطل مدته

فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتي ذكره ، و لما دخلنا مكة لطواف الافاضة و قد ألبست الكعبة الكسوة السوداء التي يرسلها الخليفة الذي نسجت في أيامه فتأملت الطراز ، فوجدت فيه اسم الناصر في جانبين من جوانب الكعبة الأربعة ، و في الجانبين الآخرين اسم الظاهر فعلمت أنهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر و نظمت في هذه السنة أيضا قصيدة على قافية الهمزة وصفت فيها أمير الحج و منازل الطريق التبوكية أيضا أولها :

يا حبذا وطن الحبيب النائي

قال أبو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث و خمسين وخمسة ، و ببيع بالخلافة غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين و خمسمائة ، وكان له خادم اسمه رشيق قد استولى على الخلافة و أقام مدة يوقع عن الخليفة ، و كان قد قل بصره و قيل ذهب جملة ، و كانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . و الحصاة و لقي منه شدة ، و شق ذكره مرارا ، و ما زال يعتريه حتى قتله . و غسله خالي أبو محمد يوسف و كان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل في تابوت و دفن عند أهله ، و كان قد خطب للظاهر بولاية العهد في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، و عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده في المحرم سنة سبعين و خمسمائة ، ثم عزل عن العهد في سنة إحدى و ستمائة ، ثم اعيد إلى العهد في سنة ثمان عشرة و ستمائة ، و لما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية ، فشاهدوا الناصر ميتا مسجى فبايعوا أبا نصر و لقبوه بالظاهر ، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة ، حلو الشائل شديد القوة ، أفضت الخلافة إليه وله اثنتان و خمسون سنة إلا شهورا ، فقيل له ألا تستفتح ؟ فقال : قد فات الزرع ، فقيل له يبارك الله في عمرك . فقال : من فتح دكانا بعد العصر ايش يكسب ، و لما ببيع أحسن إلى الناس و لم يؤاخذ أحدا بمن سعى في

خلعه، فقابل الاساءة بالاحسان و صلى على أبيه بالتاج و فرق الأموال وأبطل المكوس و أزال المظالم (١١٢).

وفيها: توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد أبيه و مملكته دمشق و أعمالها ، و الأرض المقدسة وأعمالها . و مولده بمصر سنة خمس وستين و خمسمائة . و كان فاضلا شاعرا حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر في سمسياط، وبها توفي في ربيع الأول ، و نقل إلى حلب فدفن بظاهرها.

و فيها : توفي بحلب في أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، و كان من أكابر أمراء حلب ؛ كثير الخير و الصدقات الدارة، و البر الوافر ، و بنى بحلب مدرستين احدهما؛ لأصحاب أبي حنيفة بظاهر حلب . و الأخرى للشافعية داخل حلب. ووقف عليها الأوقاف ، و بنى الخانات في الطرقات ، وله الغزوات المشهورة ، و المواقف المذكورة، رحمه الله

و فيها توفي علي الكردي المولده، الذي كان مقبيا ظاهرا باب الجابية بدمشق ، و اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلي، ولا يصوم، ولا يلبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ، و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه

قال أبو المظفر : و حكى لي امرأة صادقة قالت: ماتت أمي باللادقية، و لم أصدق و جاء قوم فقالوا : ماتت، و جاء آخرون فقالوا : ما ماتت، قالت : فخرجت إلى باب الجابية و هو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه و قال : ماتت، ماتت : إيش تعملين، و كان كما قال.

و حكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوما و ما كان معي شيئا
فاجتمعت به فدفع لي نصف درهم و قال: يكفي هذا للسعتر بس

قال: و دخل يوما على جمال الدين الدولعي خطيب دمشق المقصورة،
و كان يغشاه، فقال له: يا شيخ علي قد أكلت اليوم كسيرات يابسة
وشربت عليها الماء فكفتني . فقال له و ما تطلب نفسك شيئا آخر ؟
قال: لا، قال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه
المقصورة و لا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج. (١١٣)

وفيهما توفي خطيب حران الفخر بن تيمية و هو أبو عبد الله محمد بن
القاسم بن محمد الحراني فقيه حران بها ولد ، و قدم بغداد و تفقه بها
على أبي الفتح بن المنى . و وعظ في رباط محمود النعال، و سماع
الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، و صنف الخطب
والتفسير و غير ذلك ، و كان فاضلا فصيحاً سمع شهدة ، و ابن
المقرب، و ابن البطي وغيرهم.

قال أبو المظفر: و كان خطيباً بحران حتى إذا نبغ فيها أحد لا يزال
وراءه حتى يخرج منه و يبعدة عنها ، و مات في خامس صفر ،
وسمعه ينشد في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر:
أحبابنا قد نذرت مقلتي

ما نلتقي باليوم أو نلتقي
رفقاً بقلب مغرم و اعطفوا
على سقام الجسد المعروق
كم تمطلونى بليالي اللقا
قد ذهب العمر و ما نلتقي (١١٤)

وفيهما : توفي عبد المنعم بن علي بن عبد الغني القرشي الصقلي، كان
رجلاً صالحاً خيراً، و كان مقرئاً حسناً قد قرأ على تاج الدين الكندي ،

وعلم الدين السخاوي وغيرهما ، و كان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا ما يطلبه ليصلي به من عقيدته في صلاحه ، و كان قد حج معي في سنة إحدى و عشرين ، فلما رجع إلى دمشق توفي عقيب قدومه من الحج ، و دفن بجبل قاسيون ، وهو : أخو الزين الضير ، كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

و فيها : في شعبان توفي بمصر الوزير صفى الدين عبد الله بن عبد الخالق بن شكر ، أبو محمد ، و مولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية في سنة أربعين و خمسمائة ، و دفن بتربته التي أنشأها جوار مدرسته بالقاهرة ، حكى عنه القوصي في معجمه ، و قد سبق من أخباره في حوادث سنة خمس عشرة و ستمائة ، و هي سنة نكبته بعد وزارته ، و له بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، و تبليط الجامع ، و عمارة مسجد الفوارة . و تجديد مسجد حرستا ، و جامع المزة و غير ذلك ، وبلغني أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفي لنفسه :

مهما تهاود في أمري امرؤ و غدا
مصارم الأرى إلا بمجله
وإن أساء مسيء فوق طاقته

أحسنن مجتهدا حتى أحجله

و قال : أنشدنا الحافظ السلفي لابن رشيق و قد قيل له : لم لا تركب البحر للحج ؟ فقال معتذرا :

البحر صعب المرام هولا
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فهل ترى صبرنا عليه

و لعبد الجبار الكاتب:
لا أركب البحر خوفا
عليه من المعاطب
طين أناء وماء
والطين في الماء ذائب

و لأبي الفتح البستي :
ان ابرم من آدم طين
والبحر ماء يذيه
لولا الذي فيه يتلى
ماجاز عندي ركوبه

وله أيضا :
وأخضر لولا آية ماركبته
ولله تصريف القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عبابه
أيارب إن الطين قدركب الماء (١١٥)

ثم دخلت

سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم من بغداد محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولا إلى المعظم ، و معه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالة الخوارزمي.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظم صورة الرسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى أخوتك ، و نصلح بينك وبين أخوتك - و المعظم قد بعث مملوكه الركين إلى الخوارزمي فرحله من تفليس فأنزله على خلط و الأشرف بحران- قال: فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمي و قصدي أخوتي تنجدوني؟ قال : نعم، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا، و نحن على دمياط ، و نحن نكتب نستصرخ به و نقول : أنجدنا ، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة لم يفعلوا ، و قد اتفق أخوتي علي و قد أنزلت الخوارزمي على خلط إن قصدي الأشرف منعه الخوارزمي ، و إن قصدي الكامل كان في له . (١١٦) .

و فيها: قدم الأشرف دمشق و أطاع المعظم ، و سأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خلط ، وقال: نحن ممالكك و ما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم فرحل الخوارزمي عن خلط، وكان قد أقام عليها أربعين يوما ، و نزل الثلج و أقام الأشرف عند المعظم بدمشق. و كان المعظم يلبس خلعة الخوارزمي و يركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، و عند الأشرف من هذا المقعد المقيم و هو ساكت .

قال : و توجه خالي إلى مصر إلى الكامل، و هذه أول سفرة سافرها
خالي إلى الشام و مصر

قال: و فيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس ، و من الشام
علي بن السلا.

وفيهما: فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون إليّ، و قلت .
و في يوم جلوسي للتدريس بها توفي شمس الدين محمد ابن شيخنا
علم الدين السخاوي رحمه الله بدمشق و دفن بالجبل.

و فيها: في آخر ربيع الأول توفي قاضي قضاتها جمال الدين يونس بن
بدران بن فيروز المصري ، و دفن بداره بدرب الريحان، و كان فقيها
كثير الاشتغال، و اختصر كتاب « الأم » للشافعي رحمه الله ، و صنف
فرائض كثيرة تحتوي على مسائل كثيرة و كان قد اعتنى به الوزير صفي
الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة
الأمينية بعد تقي الدين الضرير ، ثم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة
و إلى الملوك بالروم ، و بلاد الشرق و حلب و غيرها ، ثم ولاه المعظم
بعد الزكي الطاهر قضاء قضاة الشام ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة
العادلية، فهو أول من ذكر قبل درس ، و كان يذكرها، قبل درس
الفقه درسا من تفسير القرآن طويلا و يجري فيه مباحث حسنة، فإنه
كان يحضره معنا جماعة من الفضلاء ، فاتفق أن فرغ من ذكر التفسير
من أول القرآن إلى آخره ، فلما تم له ذلك توفي بعد ذلك بقليل رحمه
الله ، و كان في ولايته عفيفا في نفسه نزها ملازما لمجالس الحكم بالشباك
الكمالي بالجامع و غيره ، و كان إذا جلس فيه بعد العصر لا يزال إلى أن
يصلي المغرب ، و في بعض الليالي يصلي العشاء الآخرة فكان إذا فرغ من
الحكم بين الخصوم تجري بحضرته المذاكرة في العلم إلى حين انفصاله،
و يجلس بكرة كل يوم جمعة و يوم ثلاثاء بإيوان المدرسة العادلية لاثبات

الكتب. و يصطف شهود البلد في جوانب الإيوان. وكان مجلسا عليه جلاله ، و لم يكن يضيع فيه الزمان في غير ما هو بصدده بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت و غيره، و لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه إذا ثبت عنده وراثه شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك ، و نقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد، و لم تكن طريقته مستقيمة ، وكان يذكر أنه قرشي فتكلم الناس في ذلك، و تولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي والمدرسة العادلية و الله أعلم.

قلت: و شمس الدين الخوئي هو أبو العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، بأشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث و عشرين و ستائة

نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور بأشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين رجب سنة تسع عشرة و ستائة.

و فيها : في شهر رجب أو شعبان توفي الشيخ تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل الثنائي المصري النحوي، و دفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتيا متواضعا، قاضي الحاجة لكل من يقصده ، أقام بالقدس الشريف زمانا، يقرىء الناس به حتى كان يعرف بنحوي القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم و هي سنة خمس عشرة فأعطي إمامة مشهد علي بن الحسين رضي الله عنهما بالجامع، و أنزل في المدرسة العزيزية ، فكان يقرىء بها و يتولى عقود الأنكحة ، و كنت إذ ذاك ساكنا بالمدرسة، و أتردد إليه فقرأت عليه

عروض الناصح بن الدهان الموصلية ، أخبرني عن مصنفه ، و قرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنباري . و أخبرني به أيضا عن مصنفه . و أنشدني لنفسه ميمية في حصر أقسام الواو و غير ذلك ، و كان يحثني على حفظ الحديث و التفقه فيه خصوصا صحيح مسلم ، و يقول : إنه أسهل من حفظ كتب الفقه و أنفع وأصدق ، رحمه الله ، و حث على مسح جميع الرأس في الوضوء احتياطا ، و بحث في دليله فأعجبني ، و استقر في نفسي فما أعلم أي تركته من ذلك الزمان إلى الآن و الله المستعان فيما بقي لنا من الزمان ، و كنت أرى منه مروءة تامة في توليه عقود الأنكحة و في فسخها و في فعله فيما يحصل منها ، فكان إذا غلب على ظنه فقر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، و أما عند الطلاق و الفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، و كان مما يتحصل له من ذلك يتصدق بجملة منه فلا يرد سائلا ، و ربما جاءه من يطلب منه شيئا فيقول اقعد فما يأتي فهو لك ، فأول شغل يأتيه يعطي ذلك القاصد ما يحصل منه كائنا ما كان ، و من مروءته أنه فوض إليه المسجد الذي قبلي قيسارية الفرش و كان لصاحبنا شمس الدين محمد بن عبد الجليل واتفق انه فارقه و سافر عنه متزهدا إلى العراق ، ثم اتفق رجوعه ، فنزل له عن المسجد ورده إليه فاستحسن ذلك منه

و فيها: توفي في رجب زكي الدين أبو القاسم هبة الله ، المعروف بابن رواحة من أكابر العدول و التجار أولي الثروة ، و بنى بحلب مدرسة للشافعية ، و بدمشق مثلها داخل باب الفراديس ، وقف عليها أوقافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير ، و كان يدرس في بيت المدرسة الدمشقية و هو الذي في ايوانها من الشرق ، و يقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها ، و هي كتب جلييلة ، و كان رحمه الله تام الخلقة طويلا و عريضا ، إلا أنه كان لا لحية له أصلا ، و كان مبجلا عند القضاة ، و كان قد أسند النظر الذي في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح ، ثم أنه بعد موته شهد عليه بالعزل له الشيخان تقي الدين

خزعل المقدم ذكره ومحبي الدين محمد العربي ، و كانا ساكنين قريبا من المدرسة ، فزعموا أنه استدعى بهما ليلا و أشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة ، و جرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، و كأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولده ، فغلب على وقف المدرسة و تدريسها بغير أهلية و لا استحقاق، و لا أمانة، و لا عدل، و لا إشفاق، و الأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان، و دفن الزكي بن رواحة بمقابر الصوفية.

و فيها توفي في رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، ولي تسعة أشهر و أيام ، قام فيها بالعدل حسب طاقته، و غسله محمد الخياط الشاعر

قال أبو المظفر: و حكى لي أنه دخل يوما إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلئ ، فقال له : ما جعلت الخزائن لتمتلئ بل لتفرغ و تنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار ، وولى بعده ابنه ابو جعفر منصور بن محمد و لقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة ، و توفي سنة أربعين، و سيأتي ذكره(١١٧) .

و فيها : في رجب أيضا توفي شيل الدولة كافور الحسامي ، نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام بنت أيوب ، كان خادما، عاقلا ، دينا ، صالحا، مهيباً له حرمة وافر في الدولة و منزلة عالية عند الملوك ، اعتمدت عليه سيدته ست الشام في بناء تربتها، و مدرستها الشافعية بمنحلة العوينة، و كان حنفي المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل ، ولصقها تربته والخانقاة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، و بنى المصنع قبالة ذلك والقناة و الساباط المظلل للطريق ، و المصنع الآخر الذي برأس الزقاق الطويل

و فتح للناس طريقا للجبل من عند المقبرة التي غرب المدرسة الشامية
تفضى إلى عين الكرش، و لم يكن إليها طريق قبل ذلك إلا من جهة
مسجد الصفي المجاور لمقبرة باب الفراديس، و له صدقات دارة،
و إحسان كثير ، و دفن بتربيته إلى جانب مدرسته المذكورة. و كان قد
سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندي و غيره رحمه الله.

و فيها: توفي المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد و الي دمشق،
ولد بالموصل ، و قدم الشام فخدم فرخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب
و تقلبت به الأحوال و استنابه أخو فرخشاہ لأمه بدر الدين مودود
الشحنة بدمشق ، ثم ولاه العادل الشحنة استقلالا فأحسن السياسة،
و لطف بالرعية ، و كان بين يديه نقيب له يعرف بسويد من أحذق
الناس و أعرفهم بتدبير وقائع الولاية ، و كان المعتمد ديناً، ورعاً ، عفيفاً،
نزهاً، اصطنع عالماً عظيماً من النساء و الرجال ، و ستر عليهم كباثر
الأحوال ؛ و كانت دمشق و أعمالها في أيام ولايته لها حرمة ظاهرة وهي
حسنة.

قال أبو المظفر : و مما جرى له أنه كان في دمشق رجل فاتك و إلى
جانب بيته قوم لهم ولد صغير في أذانه حلق من ذهب ، فاغتاله الرجل
يوماً فخنقه و أخذ الحلق من أذنه ، و أخرجه في قفة و دفنه في باب
الصغير . و فقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز عذاباً أليماً فلم
يقر و أطلق ، و في قلب المرأة النار من ولدها، فطلقت زوجها و تزوجت
الرجل القاتل و أقامت معه مدة ، فقالت له يوماً و هي تداعبه: قد
مضى الابن و أبوه و كان منهما ما كان ، - و كان الزوج قد مات - أنت
قتلت الصغير ؟ فقال: نعم و أخذته و دفنته في الباب الصغير ، فقالت:
قم فأرني قبره ، فأخذها و خرج بها إلى المقابر و حفر القبر فرأت ولدها
فلم تتمالك و ضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه و دفنته
فألقت في القبر و جاءت إلى المبارز فحككت له الحكاية ، فقام و خرج

معها إلى القبر فكشفته له . فقال: أحسنت والله ينبغي لنا كلنا أن نشرب لك فتوة .

قال: وحكى لما حرم العادل الخمر ركبت يوما وخرجت من باب الفرج ، و إذا برجل في رقبته طبل و هو يتمايل تحته، فقلت امسكوه وشقوا الطبل فشقوه، و إذا فيه ركوة خمر فبددها و ضربته الحد، قال: فقلت له من أين علمت ؟ قال: رأيت رجله و هي تلعب ، فعلمت أنه قد حمل شيئاً ثقيلاً .

قال: و كان لداره بابان : الباب الكبير عليه الغلمان و البواب ؛ و باب السر في زقاق آخر ، فكان النواب إذا مسكوا في الليل امرأة من بيت معروف و حملوها إليه على حالها يقول لهم: انزلوا حتى أقررها ، ثم يقول لها: يا بنتي انت من بيت كبير و أهلك رجال معروفون فما الذي حملك على هذا ؟ فتقول : يا سيدي قضاء الله فيقول لها : ستر الله عليك . و يبعث معها الخادم من باب السر إلى بيتها ، فأقام على هذا نحواً من أربعين سنة.

قال: وكان في قلب المعظم له شحنة لأنه كان يشفق عليه و يحفظه في أماكن يدخل إليها بدمشق في الليل و هو شاب فيأمر غلمانه أن يتبعوه من بعيد ، و كان العادل من مصر يكتب إليه بذلك ، فلما مات العادل أظهر ما كان في قلبه منه ، فاعتقله مدة في القلعة ، فلم يظهر عليه و على أحد من أولاده و حاشيته أنه أخذ من الرعية ما مقداره مثقال حبة من خردل ، و لا غير ما كان عليه من العفة ، و الأمانة، و الصلاح ، و الديانة. ثم أنزله من القلعة إلى داره و حجر عليه فيها، و بالغ في التشديد عليه ، وكانت وفاته يوم السبت الحادي و العشرين من ذي القعدة ، و عمره نحو ثمانين سنة ، و دفن بجبل قاسيون في التربة التي أنشأها في الجبل.

قال: و حكى لي أنه ولي دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم اشتغل بالولاية إلى أن عزل في سنة سبع عشرة وستمائة ، و كانت ولايته نيابة و استقلالاً قريبا من خمسين سنة.

قالوا: و لم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يجبس و ينسى، فعوقب بمثل ذلك ، و أقام محبوسا خمس سنين إلا أياما.

قال: و جرت لي معه واقعة عجيبة كنت في كل ليلة جمعة أزوره و انقطعت عنه مدة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيت في المنام كأن قبره في روضة خضراء و القبر معمول بالفص الأخضر، و ليس هو من جنس فصوص الدنيا فطربت لحسنه و رونق المكان ، فهتف بي هاتف: لو رأيت ما في باطن القبر، قلت: و ما في باطنه؟ قال: الدر، و الياقوت، و المرجان، و ما يستغنى عن قراءة كتاب الله .

فانتبهت و فهمت الإشارة ، فأنا في كل ليلة أقرأ ما تيسر من القرآن و أهديه إليه و إلى أهلي و أصحابي و معارفي رحمهم الله (١١٨) .

و فيها: توفي البدر الجعبري، و إلى قلعة دمشق و أقام و إليها مدة في أيام المعظم ، و خدم الظاهر بحلب و غيره، و حمل إلى نابلس فدفن عند أهله

ثم دخلت

سنة أربع و عشرين و ستمائة

ففيها: قدم رسول الانبروز ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله ، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلا السيف

و فيها: في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام و غيره على سبيل الزيارة للأقصى و الخليل و ما بتلك الديار من الآثار ، و رجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

و فيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار و هي آخر إمرته على الحاج ، و آخر السنين التي كان الحج فيها رضيا طيبا ، و انقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف و الفتنة .

و فيها: حج من ميافارقين سلطانها شهاب الدين غازي بن العادل .

قال أبو المظفر : و كان ثقله على ستمائة جمل ، و معه خمسون هجينا على كل هجين مملوك ، و جهزه الأشرف جهازا عظيما ، و سار غربي الفرات ، على قرقيسيا ، و الرحبة ، و عانة ، و الكبيسات ، و المعمر ، و العين ، و شفاتا ، و كلها قرى فيها عيون جارية و نخل كثير ، و منها يجلب التمر إلى الشام ، و عبر كربلاء فزار المشهد ، ثم الكوفة و زار مشهد أمير المؤمنين . و حج بالناس من العراق شمس قيران مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين و بغلة و ألفى دينار ، و قال: هذه من ملكي أنفقها في طريق الحج ، و أوصى أمير الحاج بخدمته ، و تصدق في مكة و المدينة ، و عاد إلى العراق ، و لم يصل الكوفة بل

سار غربي الطريق التي سلكها ، و كاد يهلك هو و من معه عطشا حتى وصل إلى حران.(١١٩).

و فيها: توفي بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، و ما بين الأرض المقدسة و مدينة النبي صلى الله عليه و سلم من الكرك، و الشوبك، و العلا، و كان قد سير في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة ، و هي السنة التي حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات، و كتبها له منزلة منزلة، و سهل في طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيبة الصوان ، و كثر المير لهم في أراضي الكرك ، و الشوبك و تبوك ، و العلا، و المدينة على ساكنها السلام ، و كان الحجاج يجردون بذلك رفقا عظيما، و بالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو و الاشتغال بأنواع العلوم، و الحج إلى الحرمين بنفسه ، و إعانة غيره عليه و كان عديم الالتفاف إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة و التعظيم و المدح و غير ذلك ، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات ، فكانت ترى علمه مركوزا إلى جانب محمله تحت الجبل، و كان يركب وحده مرارا كثيرة ، ثم يتبعه من شاء من علمانه طاردين خلفه ، و كان إذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيلي يجلس فيها هو و من معه من إمرائه و خواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حينئذ ماشيا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجارة للكلاسة فيصلي الجمعة بها مع الناس ، أقام على ذلك زمانا ، و كان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفا لهم ، كأنه واحد منهم ، أنشدني المحب بن أبي السعود البغدادي الحجازي، و كان من الملازمين خدمته قال: نظمت فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى

بـوال فما وجدني عليك ببال

- ٩٢٧٠ -

ومذغبت عني ماظفرت بصاحب
أخي ثقة إلا خطرت بيالي

ثم دخلت

سنة خمس و عشرين و ستائة

في دولة المستنصر بالله

ففي ثامن عشر صفر جاء منشور الولاية لداود من عمه الكامل محمد ابن أبي بكر ، و كانت الفرنج لعنهم الله و خذلهم قد تحركوا و انبثوا ببلاد الساحل ، لأن الهدنة كانت قد تمت، و بقي المسلمون منهم في خوف ، فرأيت في المنام ليلة الثلاثاء تاسع صفر كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جاء للنصرة و عليه برد يمان وفرجية مفتوحة، و قال: سنأمر من ينادي بالرحيل إلى الساحل، و وعد بأن يستخلف على الشام إذا عاد رجلا شريفاً شجاعاً، فاستبشر الناس لهذه الرؤيا ، فلما كان أواخر ربيع، و ذلك في أيام عيدهم الذي بعد صيامهم أغار المسلمون على بلاد صور، فغنموا غنيمة كبيرة من إبل، و بقر، و غنم مقدار ستة آلاف رأس و غير ذلك ، و خرج إليهم من الفرنج نحو مائتين ، فكانوا بين قتيل و أسير و غريق في البحر، و ما نجا إلا القليل، و من جملة الأسرى ابن ولي صور، و قيل الوالي، و قيل خلصه المركب ، و خبرت أن بعد الوقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

و في هذه السنة نزل العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها ، و فيها ابن عمه الأجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فأعان الناصر داوود الأجد على العزيز ، و أمره بالرحيل عنها ، فرحل واشتد حنقه على الناصر .

قالوا: و كاتب العزيز الكامل و حثه على الإتيان إلى بلد دمشق

ليسلمه ، و أوهمه أنه في يده ، فجاء الكامل و انضاف إليه العزيز، وجاءهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ، و قد كانت له بمحاصرة والده ضغينة على عيسى ابن أبي بكر ، لأنه كان نازل بلده حمص و خرب ما حولها و نهبه، فأراد استيفاء ما جرى على بلده بمحاصرة ولده ، فحسن ذلك في رأي الكامل، واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر ، فجاءه و أكرمه غاية الأكرام ، و ذلك في أواخر رمضان ، ثم دخل الأشرف إلى الكامل و اجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من داوود بن عيسى، و أن دمشق تكون للأشرف و انضاف إليهما من عسكر الناصر عمه الصالح اسماعيل بن أبي بكر ، و ابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبي بكر بن أيوب، و جماعة من الأمراء مثل عز الدين أيدير ، و الكريم الخلاطي و غيرهما ، و جاء أخو الأشرف إلى المظفر شهاب الدين غازي بن أبي بكر و اجتمع الجميع بأرض فلسطين ، و قد كان الناصر خرج لأجل عمه الكامل و خدمته، و ظن أن الأشرف عنده قد أصلح أمره، فوصل إلى الغور ، و سمع باجتماع أعمامه عليه و أنهم عازمون على القبض عليه، فرجع إلى دمشق و أخذ في الاستعداد خوف الحصار، و سذكرا ما جرى من ذلك في سنة ست وعشرين.

و في هذه السنة في المحرم توفي جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ، ولد بأسنا من أعمال قوص سنة سبع و خمسين و خمسمائة ، و نشأ بقوص ، و تأدب فيها بفنون العلوم ، كان دينا حسن النثر و النظم، و تولى الديوان ببلاد قوص ، ثم بالاسكندرية، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشاء للملك المعظم عيسى ، حكى عنه القوصي في معجمه.

و في هذه السنة توفي الشيخ الصوفي هندولا في السابع و العشرين

من أحد شهري ربيع ، و دفن بمقابر الصوفية ، و في أواخر جمادى الأولى توفي الشمس أحمد بن القواص ، و الشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل ، و في أوائل رجب توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي المقيم بمدرسة المالكية ، و دفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زوزان قبلي مقابر الصوفية، و كان أول من دفن بها، و في سادس عشر رجب توفي المحب الليلي المعروف بالمغربي، و دفن بمقبرة ابن زوزان أيضا، و في سادس عشر رمضان توفي الفقيه ضياء الدين ابن عبد الكافي ، و دفن بالجبل ، و في يوم عيد الفطر توفي التقي أبو عبد الله المغربي الجابري و دفن في مقبرة ابن زوزان، و قد كان معنا في المدرسة . و في مستهل ذي القعدة توفي القاسي عبد الرحيم ، الذي كان يحفظ الوجيز و دفن بالجبل. و في سادس عشر ذي الحجة توفي الجمال ابن القفصي المعروف ، و دفن بالجبل.

و في هذه السنة توفي الفقيه عبد المحسن الحنبلي ، و موسى الموصلبي بمصر ، و معرفتنا شهوان السواق في الدقيق بدمشق، وخلق كثير غيرهم رحمهم الله.

و فيها: في صفر عزل الصدر بن البكري عن مشيخة الشيوخ بدمشق، ووليها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، و في سادس رمضان عزل ابن البكري عن الحسبة أيضا ، ووليها الرشيد بن عبد الهادي ،

و فيها: في شعبان توفي الأمين نفيس الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن الحسن بن محمد الأسدي المعروف بابن اللين، حكى عن جده الحسن و غيره .

و لم يدخل ركب الحجاز في هذه السنة من طريق الشام .

- ٩٢٧٤ -

و فيها : قدم قاضي البلقاء عبد الحق المالكي في أول رمضان
واجتمعت به.

ثم دخلت

سنة ست و عشرين و ستائة

في دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و سلطان دمشق داوود بن عيسى .

ففي أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله ابن محفوظ بن الحسن بن محمد بن صبرى التغلبي ، و كان له روايات كثيرة و عمر وأجاز لي جميع ما يرويه و لم أسمع منه شيئاً .

و فيها: في أواخر صفر عزل القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، و كان نائبا و تولى استقلالاً مشاركا لشمس الدين الخوئي ، و تولى القاضي محيي الدين أبو الفضائل يحيى بن محمد بن يحيى القرشي، و جلس بالكلاسة في الشباك الذي يلي المحراب الشرقي منها اماماً .

قلت: كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس و العشرين من صفر المذكور، ثم جلس في داره و كل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق، و كذا من قبله أخوه زكي الدين الطاهر بن محمد بن علي .

وفيهما: في أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج و صالحهم على ذلك ، و على تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبروز ، و كانت هذه من الوصيات التي دخلت على المسلمين ، و كانت سببا في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه . ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم *

وفي هذا الشهر تقدمت جيوش الكامل مع اخوته: الاشرف والمظفر والعزيز ، و الصالح ، و ابني أخيه : الجواد بن محمد . و داوود بن المغيث ، و معهم صاحب حمص و عسكر حلب و حماة فنزلوا عند الجسور و راء مسجد القدم ، و قطعوا عن دمشق أنهارها : بانياس والقنوات ، ثم يزيد، و ثورا، و نهبت البساتين، و أحرقت الجواسق، و خربت رباع وبادت الأشجار بانقطاع الماء ، و جرت وقعات ، فقتل قوم و جرح آخرون ، وهدم كثير من الرباع و الخانات حول البلد من خارج لا سيما على كل باب.

و لما كان يوم السبت الرابع و العشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير ، و جرح جم غفير ، و نهب قصر حجاج و الشاغور ، و أطلق فيهما النيران ، ووصلت خيل المحاصرين إلى دور البلد من جوانبه ، و دخلوا الميدان الأخضر ، ثم رجعوا آخر النهار إلى خيامهم و قد كثرت القتلى و الجرحى في الفريقين، و كثر الحريق و النهب ، ثم تسلموا حصن عزتا (١٢٠) بما فيه من سلاح و غيره صلحا مع متوليه ، و في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة وصل الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب إلى دمشق ، و نزل بالقرب من مسجد القدم ، و أمر بإجراء نهري يزيد، و ثورا لأجل سقي الأراضي ، و خرج إليه الفاضل أحمد بن عبد الرحيم بأمان منهما ، و أنفذ الناصر من جهته في أواخر النهار جماعة من كبار البلد من العلماء و خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، و قاضي القضاة شمس الدين الخوئي ، و القاضي شمس الدين الجويني ابن الشيرازي، و جمال الدين الحصري شيخ الحنفية، إلى الكامل نيابة عنه في الخدمة و السلام ، ثم عادوا من الغد ، و خرج يوم الثلاثاء حادي عشر الشهر عز الدين أيك استاذ الدار إلى الكامل بإستدعائه ، و جرى الحديث في الصلح ، و عاد ليلا، و مضى و عاد مرات ، و كان يأتي إليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينظم صلح في الظاهر.

و لما كان خامس عشر جمادى يوم السبت ، وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد و في الميدان و ما بين ذلك ، و كان النصر فيه لأهل البلد و في الغد يوم الأحد وقع الحريق و النهب من ناحية باب توما ، و أحرقت الطاحونة الأحد عشرية و الخرشنية، و التي في مرج الشيخ ، و طاحونة الأشنان أحرق بعضها ثم أطفئ ، و نهبت الدور حول ذلك ، و وقع الجرح و القتل ، و في يوم الجمعة الحادي و العشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة، و أخرجوا أهلها منها : جوبر ، و جديا، و زملكا، ثم خربت سقبا و غيرها ، و الأسعار كلما مرت تغلو ، و الخوف حول البلد ، و قد انقطع عنه الجلب ، و بلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس.

و حكى لي والدي أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، و بلغت أوقية الخبز نصف درهم ، و رطل اللحم ستة دراهم . و أما الخبز فكان بحمد الله موجودا كثيرا ، و كان أطيب شيء فيه ، و هو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، و سمعت والدي و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصار المتقدم في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار .

ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك ، و هو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من إنضاف إليهم من العرب، و كبس العسكر الذي نازهم من جهة الكامل ، فأخذوهم برقابهم ، و فازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مرارا و الكرة عليهم ، و اتخذوا مسجد خاتون و مسجد الشيخ اسماعيل و خانقاه الطاحون، و الجوسق ، الذي في الميدان الأخضر حصونا و ظهورا لهم ، و أحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليها من الخانات و الدور ، و بستان ابن يمن و الحمام ، و خربت خانقاه الطواويس، و ذلك في أوائل رجب و زحفوا يوم الأحد تاسع

رجب آخر النهار إلى أن وصلوا محاذة الباب الحديد. ورأى شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوي ليلة السبت خامس عشر رجب كأن قائلًا يقول له : بعد شهر تكون دمشق كأنها الخلد جنة ، و كان تمام الشهر ليلة نصف شعبان ، و كان الناس فيها في أطيب عيش لأن الصلح انتظم أول شعبان و ما زال البلد و الناس في ترف من زوال الشعث ، و كثرت الخيرات ، و لهم في ليلة النصف من شعبان موسم معلوم يحتفلون فيه و يكثرون الوعيد في المساجد ، لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب و النهب و العياط، و لم يكن في هذا النصف مثل ما كنا نعرف في غيره، بل كان الناس في سكون مع قلة زحمة ، و هم في سرور و الصلح و الرخص ، فقلت : هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

و كان سبب الصلح أن الناصر خرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب إلى الكامل و اجتمع به ، ثم اجتمعا مرات حتى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده بلاد الكرك ، و بلد نابلس، و قرايا من الغور و البلقاء ، و دخل عسكر الكامل دمشق يوم الاثنين مستهل شهر شعبان، و رحل الناصر يوم الجمعة ثاني عشر شعبان من دمشق إلى بلاده التي بقيت عليه، و دخل الكامل و أخويه يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر فزار قبر والده ، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل ، ثم دخل هو و الأشرف القلعة يوم الخميس ثامن عشر شعبان ، ثم توجهت عساكر الكامل صوب حماه، فنزلوا عليها يحاصرونها ، و معهم صاحب حمص شيركوه و المظفر بن المنصور بن تقي الدين وهو أخو سلطانها حينئذ ، و تسلم الأشرف دمشق في أواخر شعبان ، و أعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها : حران ، و الرها ، و رأس عين ، و الرقة ، و الموزر

ثم رحل الكامل في تاسع رمضان صوب الشرق فنزل إلى خدمته صاحب حماة المحاصر بها حينئذ و هو الناصر صلاح الدين قليج

أرسلان بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وتسلم نواب الكامل حماة في آخر رمضان ، و سار الكامل إلى بلاده التي جعلت له في الشرق ، و انتقل عسكره فنزل على بعلبك و رحل الأشرف من دمشق إليها و حاصروها.

و فيها : قدم الأجد بن فرخشاه ، و هو ابن عم الكامل ، فتسلموا البلد، بقي الحصار على القلعة ، ثم رجع الأشرف إلى دمشق . و في هذه السنة أهين جماعة من المتجبرين ، ففي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة علق هبة الله النصراني الذي كان متولي خزانة السلطان ، علق بيده اليمنى على باب كنيسة مريم و في رجله لبنة من حديد ، و كان قد عزل عن الخزانة و حبس، ثم أركب على بغل و أتي به من الحبس مهانا و الحديد في رجله و الناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة و طلب منه أموال عظيمة ، و هرب أهله و قد كان الملعون تمكن من المسلمين و آذاهم و رفع منار النصارى ، و تسلطوا بجاهه على المسلمين ، و جدد لهم بناء كنيسة مريم ، و شيد بنيانها . و رفع بابها ، و حسن عمارتها ثم هدم ما زاده و أعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه في شعبان بأمر السلطان الكامل ، و حضر ذلك جماعة من العلماء ، و العدول، و الشيوخ و خلق كثير من العامة ، و تولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم و كتب لهم بذلك مكتوب و قد كان اشتهر بالاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم بن أبي بكر ، و في دولة ابنه داوود و كثر ذلك حتى أخذه الله بالدولة الأشرفية .

وفيهما: يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم علينا دمشق الشيخ الامام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر ، المعروف بابن عوف من ذرية عبد الرحمن بن عوف ، صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، من فقهاء الاسكندرية و مفتيها في مذهب مالك بن أنس رحمه الله ، لشغل عرض له ، و اجتمعت به الغد من مجيئه

بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبي عمر ، و حكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ؛ وكان يصوم يوما و يفطر يوما كصيام داوود عليه السلام ، وأتى معه بدقيق من الاسكندرية فلم يزل يأكل منه حتى رجع و لا يناول من غيره .

و فيها: مات جماعة من أصحابنا و معارفنا و غيرهم فمنهم : سبعة كانوا من سكان مدرستنا ، و جماعة من الفقهاء المالكية ، و من جملة من توفي من أصحابنا إثنان كانا من أعزهم علي ، و أكثرهم لي اجتماعا أحدهما : زين الدين بن أحمد بن يوسف الفرغاني ، أصابته نشابة في كتفه يوم الجمعة الثالث و العشرين من جمادى الأولى ، و مات يوم الاثنين السادس و العشرين منه ، و دفن في مقابر الصوفية المشرفة على نهر بانياس . و كان رحمه الله فاضلا دينيا خيرا حسن الأخلاق من أحسن ما رأينا من الأصحاب ، وكان قد زار كثيرا من البلاد و هو في زي الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عرضه عليه ، و قدم علينا دمشق في سنة خمس و عشرين ، و كان قد حج من العراق ، فلما قضى حجه أتى مصر ، ثم جاء إلى الشام ، و كان رحمه الله قد عزم معي على المجاورة بالحجاز ، و كنا على هذا العزم في هذه السنة ، فاخترمته المنية ، و كان مولعا بإنشاد الأشعار الرقيقة ، أنشدني في عشية يوم أصابه السهم ، قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردي ينشده :

شربت الهوى والخمر صرفا كليهما
فكان الهوى عندي أشدهما سكر
أما والهوى لو ذقت طعاما من الهوى
لما كنت بعد الهوى تشرب الخمر

و الثاني: ظهير الدين عبد الغني بن حسان بن عطية بن يخلف الكناني المصري النحوي ، توفي عاشر شوال و دفن الغد في مقابر ابن زوزان ، وكان من خيار من صحبت من الأصحاب ، له أخلاق حسنة ،

وتعصب و قيام في حق من يعرفه ولديه فضل ، وعبادة ، وأما كرمه
وسخاؤه و جوده و أفضاله فشائع عنه مشتهر عرفه الخاص و العام رحمه
الله و رضي عنه ، أردت في طريق الحجاز في رجوعي منه سنة اثنتين
وعشرين و ستمائة أن أسير إليه كتابا في أوله:

أنت الظهير على المكارم كلها

من رد ذلك فهو عين معانند

عبد الغني و لست عبدا للغني

بحر الفرائد حبر كل فوائد

و لم يكن لي صاحب أخص منه، كنت آنس به و بحديثه، و في أضيق
ما أكون من الهم أجمع به فيزول عني برحمة الله ، و كان اشتغل
بالعربية على شيخنا أبي عمرو، صحبه في الديار المصرية و في سفره إلى
الشام و لم يزل يعلق عنه و يشتغل عليه بالعربية و الأصول إلى أن توفي،
وكان كثير الاعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد ، و قد
حصلت و الحمد لله بخطه في ملكي

و من جملة من توفي من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ الصالح أبو
الحسن على المغربي الملقبي، و كان لديه علم و عمل رحمه الله، توفي في
الثالث و العشرين من شهر رمضان، و دفن بمقبرة ابن زويزان، و كان
عازما على الرجوع إلى المغرب إلى أهله، ثم على الأقامة بمدينة رسول الله
صلى الله عليه و سلم و الأذان في منارته .

و في التاسع و العشرين من شعبان توفي فخر الدين علي بن بكمش
التركي النحوي، تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبي اليمن الكندي،
وقال غيره توفي الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن بكمش بن عبد
الله التركي النحوي البغدادي يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة
بدمشق والله أعلم ، و في رابع عشر رمضان مات أبو الحسن علي بن
أبي بكر الشاطبي التجيبي المقرئ ، و دفن بباب الفراديس، وكان كثير

التعب، وكان قد اشتغل بالقراءات و النحو بالمغرب ، ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبي ، صاحب القصيدة ، و كان يكرمه لأجل أنه من بلده . و في يوم الأربعاء السادس و العشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتي النجار، و دفن بالجبل ، و كان الجمع في تشييعه متوفرا ، و كان رحمه الله كثير الاحسان لا سيما في حق الغرباء و الواردين ساعيا في مصالحهم ، و كان محبا لأهل الخير ، متقربا إليهم ، و جدد المسجد في أول الشارع الذي هو غربي دار الركوة على يسار الداخلة إلى الشارع. من ماله ، و أخبرني صاحبنا أبو حفص عمر بن أبي محمد الموصلية . قال حدثني الشيخ أبو الحسن علي المصمودي الضرير ، أنه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالي، كان مجاورا بالكلاسة ، و كان معدودا من الصالحين ، يقول كلاما ما معناه: ها هنا رجلا من الأبدال . يعني محمد السبتي ، و لم بينه المصمودي لعمر الموصلية إلا بعد موت السبتي، قال: و كان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحدا.

و في هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أظسيس بن الكامل صاحب مكة و اليمن ، و دفن بالمعلية، و كان عسوقا ، لكنه قمع الخوارج ، و نفى الزيدية من مكة و أمن الحاج بها ، و كان الناس بمكة في أيام دولتهم في أمن وخصب ، و كان ملكها سنة تسع عشرة وستائة ، و بنى القبة التي على المقام

و جاءنا الخبر من المدينة شرفها الله في آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد الغماري ، و كان مجاورا بالحرمين من صغره ؛ و كان كثير الاحسان إلى الفقراء .

و جاءنا الخبر من مصر بوفاة أبي الحسن علي بن صالح القليني ، من قرية بمصر يقال لها قلين ، و كان من أصحاب الشيخ الشاطبي ، و حج

مع شيخنا أبي الحسن السخاوي ، و هو الذي أنشد النبي صلى الله عليه
و سلم قصيدة شيخنا الميمية، و إياه عنى شيخنا بقوله:

و اغفر لمنشدنا على ذنبه

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام و مصر

و فيها: توفي البهاء بن الحنبلي أخو الناصح، و الشهاب و هو الأكبر،
والناصر بعده بتسع سنين، و الشهاب بعد الناصح بتسع سنين، و مات
الشهاب سنة تسع عشرة و ستمائة في شهر ربيع الأول.

ثم دخلت

سنة سبع و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر ،
وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب .

ففي ليلة الجمعة سادس عشر صفر توفي الشيخ أبو البركات الحسن
ابن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي
المعروف بزین الأمان بن عساكر ، رحمه الله . و كان شيخا صالحا كثير
الصلاة و الذكر، و عمره نحو ثلاث و ثمانين سنة إلا شهرا، و أربعة
عشر يوما ، لأني رأيت بخطه أن مولده سلخ ربيع الأول سنة أربع و
أربعين و خمسمائة و كانت له روايات كثيرة لكتب الحديث، و غيرها عن
غير الحافظ أبي القاسم علي، و الصائغ أبي الحسن هبة الله بن الحسن و
أمه أسماء بنت أبي البركات محمد بن الحسن بن الدان خالة محيي الدين
القاضي ، و لم يزل الناس ينتفعون عليه بالساعات حتى توفي ، و كان
قد أقعد في آخر عمره و كان يحمل في محفة إلى الجامع، و إلى دار
الحديث التي أنشأها نور الدين بن زنكي رحمه الله لسمع عليه .

أجاز لي جميع ما يرويه ، و سمعت عليه طائفة من كتب الحديث،
ودفن رحمه الله عند قبر أخيه الفقيه المفتي أبي منصور عبد الرحمن بن
محمد ، المعروف بالفخر بن عساكر بالشرف القبلي ظاهر دمشق ،
واجتمع في جنازته خلق كثير ، حضرت دفنه، و الصلاة عليه رحمه الله

و فيها: في ربيع الآخرة تسلم الأشرف بن العادل بن أيوب قلعة
بعلبك من ابن عمه بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و قد
كان حصارها قد طال، ثم رحل الأشرف إلى بلاد الشرق و استخلف
على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها : في حادي عشر شهر جمادى الأولى توفي الشيخ بيرم المارديني صليت عليه بجامع دمشق و خرجت في جنازته إلى الجبل، فدفن في شرقي مقبرة ابن شيث على تل هناك ، و كان شيخا صالحا، محبا للعزلة والانفراد، صابرا على الفقر و الجوع ، كثير الصوم و المجاهدة ، و كان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاوية الدولعي ؛ و تعرف قبله بزاوية القطب النيسابوري ، و قبله بزاوية نصر المقدسي، و اسمه: بيرم - أوله باء معجمة بواحدة من تحتها، و هي مفتوحة، و بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها ، و بعدها راء مفتوحة- و في جمادى الآخرة جاء الخبر بأن خوارزم شاه ملك بلاد خلاط و استولى عليها، و قتل كثيرا من أهلها .

و جاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة و قتلوا خلقا كثيرا ، و أسروا كذلك ، و قدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق و أخبروا بما جرى عليهم .

و في آخر شعبان المعظم حوط أحمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد البيساني ، المعروف بابن القاضي الفاضل درابزينا شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، و جعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خرب ذلك جميعه و أضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، و بقي ذلك يقرأ فيه الحديث ، و فيه خزائن الكتب .

و في سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب ، بأنه التقى الخوارزمي و كسره ، و ذلك في أواخر رمضان ، و قد كان الخوارزمي قد استولى على بلاط خلاط فسار الأشرف من دمشق، واتفق هو و ملك الروم على لقائه ، فجمعوا العساكر و التقوا معه و التقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان.

و ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه : أن ذلك كان في الثامن والعشرين ، و انكسرت الخوارزمية ووقع منهم في واد خلق كثير فهلكوا، هبت عليهم رياح، و نهبوا و أخذوا و تتبعوا إلى يوم عيد الفطر، وانبثت البشائر في البلاد، لأن هذا الخوارزمي كان لا يأخذ بلد إلا قتل أهله و سبى و سلب الأموال ، و فسقوا بنسائهم و أولاد هم، و قد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبي صلى الله عليه و سلم في المنام فوعده بالنصر عليهم ، فقال : يا موسى أنت منصور عليهم ، و مظفر بهم. او كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم سار الأشرف ، فاسترد بلاد خلاط و أوغل في طلب الخوارزمي في بلاده ثم رجع (١١٢).

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام فصارت ثلاث سنين متوالية ، لانقطاع الحاج من الشام .

ثم دخلت

سنة ثمان و عشرين و ستائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر ، و سلطان دمشق الأشرف بن العادل بن أيوب ، و نائبه فيها أخوه الصالح بن العادل . ففي أولها: أحدثت الإمامة للصلوات الخمس بمشهد أبي بكر شرقي جامع دمشق ، جعل له إمام راتب .

و فيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية، فإن نيلها نقص في شوال سنة سبع و عشرين ، و هو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط .

و فيها : في صفر توفي الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق في زمانه ، و هو الذي وقف داره مدرسة للأطباء ، و هي بنواحي الصاغة العتيقة ، ومولده بدمشق سنة خمس و ستين وخمسمائة . قال القوصي أنشدني الحكيم الفاضل أبو الحسن بن التلميذ في الاسرائيلي صاحب المعتمر:
لنا صديق يهودي حماقتة

إذا تكلم تبذو فيه من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيه

و في صفر هذه السنة توفي أيضا مجد الدين البهنسي ، و اسمه : الحارث بن مهلب بن حسن المهلبي حكى عن والده مقطعات من شعره و غير ذلك ، و كان والده نحويًا أديبا فقيها ، و كان قد وزر للأشرف بالشرق ، ثم نكب بحران و اعتقل مدة ، و كشف عليه في حلب

نعمته، ثم أفرج عنه ، و أقام بدمشق إلى أن توفي بها و دفن في التربة التي وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون.

و فيها : في آخر ربيع الآخر سافرت إلى الديار المصرية ، فدخلت دمياط في جمادى الأولى ، و القاهرة و مصر في جمادى الآخرة، والاسكندرية في ذي الحجة

وفيهما: ولد أخي أبو محمد بن اسماعيل ، و فيها : في مستهل ذي الحجة توفي الزين النحوي يحيى بن معطي الزوافي رحمه الله بالقاهرة وأنا بها ، و صلي عليه بجانب القلعة عند سوق الدواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكامل بن العادل ، و دفن بالقرافة في طريق قبة الشافعي رحمه الله ، على يسار المار إليها على حافة الطريق محاذيا لقبر أبي إبراهيم المزني رحمه الله ، حضرت دفنه ، و الصلاة عليه ، وكان آية في حفظ كلام النحويين .

و فيها توفي الزين الكردي أبو عبد الله محمد المقرئ ، و كان من أصحاب الشيخ أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ، توفي بدمشق ، و أخذ مكانه في الجامع شيخنا أبو عمرو بن الحاجب ، و حج بالناس في هذه السنة من الشام ، و مصر، و فيها حج شيخنا ابن الصلاح ثم انقطع الحاج بعد السنة وفيها توفي الملك القاهر تاج الملوك اسحق بن العادل ، والله أعلم .

ثم دخلت

سنة تسع و عشرين و ستائة

و أنا بالاسكندرية في خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر، وسلطان دمشق الأشرف بن العادل ، و في الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل .

ففيها: رجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر ، فوجدت العماد المحلي مريضا ، و مات في تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر ، و اسمه: حسام بن غزي بن يونس ، و كان ظريفا شاعرا حسن المحاضرة ، و دفن في مقابر الصوفية ، حضرت دفنه ، و له ترجمة حسنة في معجم القوصي .

و في مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالعلم ابن النحاس، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه ، و كان شابا حسنا دينا حسن الخلق ، و سمت رحمه الله .

و فيها: في تاسع جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني الحنفي ، المعروف بابن الموصلي ، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و مولده في رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع و خمسمائة ، و أجاز لي جميع ما يرويه ، و كان شيخا دينا لطيفا .

و فيها : في إحدى الجمادين عزل القاضيان الشمسسان الخوثي و ابن سني الدولة، و ولي مكانهما قاضي القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستاني، و عزل في سنة إحدى و ثلاثين و ستائة، و تولى ابن السني .

و فيها : وصل إلينا الخبر بوفاة الشيخ ابن عيسى بالاسكندرية، وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السلفي ، وغيره و أجاز لي جميع ما يرويه .

و فيها : توفي الجمال بن الحافظ عبد الغني الحنبلي ، و دفن بالجبل، وفيها : توفي ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبي الحسن بن سيدهم المصري و يعرف أبوه بصمد يعقوب ، بدمشق عند يوسف بن أبي الحسن ، و كان كما أتهرني أدبيا فاضلا و من شعره:
أرسلت من كبد لما رميت به
ماسار من كبد إلا إلى كبد

و أجازني المستنصر بن الظاهر بن الناصر و أنا بدمشق . ففيها أنشئت دار تعرف أولا بدار قايماز النجمي وولي الاشتغال فيها مستهل رمضان قدومه من الحج ، و لبث إذ ذاك بمصر ، و كان قد أنشدني لأخيه :

القوس ابنه افغدت تن
والأم قد تخنوع على الولد

من الأبيات الفائقة .

ثم دخلت سنة ثلاثين و ستائة

في خلافة المستنصر

و فيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب.

و في هذه السنة توفي جماعة من السلاطين منهم : المغيث بن المغيث ابن العادل ، و العزيز عثمان بن العادل ، و ابنه . توفي العزيز عثمان ليلة الحادي عشر من رمضان ، و توفي المغيث في حصار حصن كيفا في المحرم ، و مظفر الدين صاحب إربل و غيرهم ، مولد العزيز عثمان في ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة ، و مات بالنعيمة . (١٢٢)

ثم دخلت

سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة

ففيها : تو في بهاء الدين بن أبي اليسر في خامس عشر المحرم، ومولده سنة خمس و ستين و خمسمائة

و فيها مات الشيخ أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي المعروف بالسيف الأمدي، و دفن بجبل قاسيون رابع صفر وكان حسن الأخلاق ، كبير القدر في معرفة الأصولين ، و الجدل، والخلاف، و المنطق، و علوم الأوائل ، و صنف فيها كتباً كثيرة .

و فيها : في شعبان توفي القاضي عبد الرحيم بن محمد بن عساكر ، روى عن محمد و غيره، و مولده سنة تسع و خمسين و خمسمائة بدمشق في رمضان المبارك .

و فيها : في شعبان أيضاً توفي بالموصل العز علي بن محمد بن عبد الرحيم الجزري المعروف بابن الأثير المؤرخ ، صاحب المصنفات ولد سنة خمسين و خمسمائة . و فيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن ابن اسماعيل في الثالث و العشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

و فيها : جاءنا الخبر إلى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر صفر من هذه السنة ، و صلى عليه الشرف محمد بن أبي الفضل المرسي، و أخبرني بدمشق أن وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بالبقيع قريباً من قبر عثمان رضي الله عنه ، و كنت اجتمعت به بالمدينة و بمصر ، و أجاز لي رواية ما يصح عنه روايته ، و كان إماماً قدوة له قبول عند أهل الآخرة ، و أهل الدنيا .

و فيها : تو في عندنا بدمشق النجم التفليسي ، و اسمه ثابت بن ناوان ، و كان كبير المحل ، حسن الأخلاق مشتغلا بعلم الشريعة والطريقة ، ودفن في مقابر الصوفية ، و فيها: توفي الزين بن قفرجل ، والشمس ابن قوام* و كانا من خيار عدول البلد ، و في ليلة الجمعة خامس شوال توفي البرهان أبو الحسن اسماعيل بن أبي جعفر بن علي القرطبي إمام الكلاسة ، و دفن من الغد بجبل قاسيون عند قبر والده ، وكانت له جنازة عظيمة . سمع على الحافظ أبي القاسم بن علي و على غيره ، و حضرت دفنه والصلاة عليه ، و كان في حياته منقطعاً بالمنارة الشرقية مشتغلاً بالطهارة و الصلاة . ثم مات الشيخ عبد الله الأرمني ، و كان شيخاً صالحاً منقطعاً بالجبل بعد البرهان بخمس عشرة ليلة أو نحوها ، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله . ثم جاءنا الخبر في هذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، و كان مشهوراً بالعلم ، و اللطف ، والتواضع رحمه الله .

و في هذه السنة أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين ، بفتح بابها إلى الزيادة ، و نقل إليها سوق الصاغة ، و كذلك ما أحدث من الدكاكين في وسط الزيادة ، كان في هذه السنة .

و فيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم و بين ابن أيوب .

و لم ينج في هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

ثم دخلت

سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة

ففيها : توفي الشهاب ابن عصرون في ليلة الثامن و العشرين من المحرم و هو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبي سعد ، و في المحرم توفي البدر الوكيل بمجلس الحكم ، و اسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ، و دفن بالجبل ، روى عنه القوسي في معجمه .

و فيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، و اسمه يوسف ابن رافع بن تميم ، و كان من رؤسائها و كان للناس به نفع ، و كنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق و أجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر ، و عند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و في هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفي الدين حسن ابن أبي طالب البغدادي المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و كان شابا فاضلا ، أدبيا . كتب لصاحب المدينة ثم وزر له . و اشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذي الحجة سنة إحدى و ثلاثين جماعة من سفهاء على باب مسجد المدينة ، على ساكنها السلام ، قبيل العشاء الآخرة فضربوه بأسيا فهم حتى قتلوه ، و هو داخل من باب المسجد ، أخبرني بذلك الشيخ أبو الفضل المرسي ، قدم علينا في هذه السنة ، و كنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مرارا ، و بالمدينة في حجتي سنة إحدى و عشرين و اثنتين و عشرين و ستمائة .

و في مستهل سنة اثنتين و ثلاثين توفي الشهاب السهروردي ببغداد ، و كان كبير القدر و الشأن ، و له تصانيف في علم التصوف ، و قدم دمشق مرارا و أنا بها صغير ، و عقد بها مجلس الوعظ و لم أره رحمه الله ،

ومولده سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة ، و اسمه : عمر بن محمد بن عبد الله البكري .

و فيها : في ثالث جمادى الأولى ولد أخي عبد الحليم بن اسماعيل جعله الله مباركا .

و فيها : في سادس عشر شهر رجب المرجب، توفي الشيخ العدل أبو علي الحسن بن يحيى بن صباح المصري و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه بظاهر دمشق خارج باب الفراديس ، سمعت عليه أكثر الخلعيات ، و لي منه إجازة ، و مولده بمصر في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين و خمسمائة ، وكانت له ديانة ؛ وأصالة ، وأمانة ، وعدالة رحمه الله .

و في هذا الشهر خرب خان بالعقيبة ، كان كثير الفسق و الفساد ليجعل مسجدا تصلى فيه الجمعة ، فتم جامعا كبيرا حسنا سمي بجامع التوبة ، و ذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب . و هو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير .

و في ليلة الأحد تاسع شعبان توفي التقي بن ماسوية ، و اسمه : أبو الحسن علي بن أبي الفتح المبارك بن الحسن بن أحمد بن ماسوية ، بدمشق ، و دفن بباب الصغير ، و كنت مريضا تلك الأيام فلم يقدر لي شهود جنازته ، و كان شيخا خيرا حسن الأخلاق متواضعا لطيفا مشهورا بالقراءات ، سمع من الحازمي و غيره و أجاز لي رواية جميع ما يرويه ، و ذكر لي أنه ولد سنة ست و خمسين و خمسمائة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة

ففيها: توفي أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث في ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ، و لي منه إجازة

و فيها : توفي البهاء الأراي ، و اسمه عبد الخالق بن الشافعي ، وكان شيخا متدينا عالما مشهورا ببلاده ، ثم انتقل إلى دمشق في آخر عمره ، ومات بها في خامس عشر شوال من هذه السنة و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس .

و فيها : في ذي القعدة وصل إلينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين ، أبو الطاهر محمد بن عبد الرحمن الجابري ، من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه، و اشتهرت نسبه بالمحلي،

و كان من أصحاب الشيخين الشاطبي ، و القرشي، و كنت اجتمعت به في مصر غير مرة رحمة الله عليه، ولد سنة أربع و خمسين و خمسمائة .

و فيها : مات أبو علي الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوي البغدادي ، ذكره القوصي في معجمه .

ثم دخلت

سنة أربع و ثلاثين و ستمائة

ففي ثالث منها توفي الناصح بن الحنبلي الواعظ ، و اسمه: عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الأنصاري، وكان واعظا متفننا، و له مصنفات . و له بنيت المدرسة التي بالجبل ، للحنابله رحمه الله و مولده سنة أربع و خمسين و خمسمائة ، و مات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع و عشرين و ستمائة ، و مولده سنة سبع و خمسين و خمسمائة .

و فيها: جاءنا الخبر بموت أبي عمرو عثمان بن دحية بالقاهرة ، وهو أخو أبي الخطاب المقدم ذكره، رحمه الله .

و فيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضي أبو مروان محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سعاة اللخمي الأندلسي الإشبيلي ، من بيت كبير من الأندلس ، يعرف ببيت الباجي مشهور به، كثير العلماء و الفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان ، و ليس منهم أبو الوليد الباجي الفقيه ، ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس ، قدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة و نزل عندنا بالمدرسة العادلية ، و جده الأعلى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن علي قدم الديار المصرية و حج منها و معه ولده محمد بن أحمد، و يعرف بصاحب الوثائق ، و سمعوا بها جماعة من العلماء ، و ذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في تاريخه « جذوة المقتبس » و كناه أبو عمر ، و ذكر أنه سكن اشبيلية و أثنى عليه كثيرا و قال: مات

في حدود الأربعمائة ، روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ، وأبوه عبد الله بن محمد بن علي يعرف بالراوية ، وذكره الحميدي أيضا ، وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة : عبد الملك بن عبد العزيز جده هذا الشيخ القادم ، وأثنى عليه ، وقال : توفي في سنة اثنتين و ثلاثين وخمسمائة ، (١٢٣) و كان هذا أبو مروان سلمه الله حسن الأخلاق ، فاضلا ، متواضعا ، محسنا ، و سمعته يقول و قد سئل في إعارة شيء فبادر إليه بنفسه ، ثم قال : أنا عندي في قوله تعالى : (و يمنعون الماعون) (١٢٤) هو كل شيء و استفدنا من هذا الباجي فائدة جلية ، و هو معاينة قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عندهم متوارث ، و قد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه « المحلى » وعايرته الحمد لله أنا بدمشق حيثئذ و هو الكيل الكبير فوجدت مدنا يسع صاعين إلايسيرا ، ووجدته ممسوحا يسع صاعا و نصفا أو شيئا فيكون مدان ممسوحان ثلاثة أصع زائدة ، عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها به فوجدتها تسع مدين و هما نصف صاع . قرأت في كتاب « المحلى » لابن حزم : و خرط لي مد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، و هو عند أكبرهم لا يفارق داره ، أخرجه إلي - يعني - الذي كلفته ذلك عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي المذكور ، و ذكر أنه مد أبيه ؛ و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالد ، و أخبر أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى الذي أعطاه إياه ابنه عبيد الله بن يحيى ، و خرطه يحيى على مد مالك ، قال أبو محمد : و لا شك أن أحمد بن خالد صححه أيضا على محمد بن وضاح ، الذي صححه ابن وضاح بالمدينة . قال أبو محمد : ثم كتبه بالقمح الطيب ثم وزنته فوجدته رطلا واحدا و نصف رطل بالفلفلي ، لا يزيد حبة ، و كتبه بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب ، فوجدته رطلا واحدا و نصف أوقية ، و سألت عن الرطل الفلفلي فقبل لي هو ست عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم ، و في تقدير ابن حزم نظر ، والله أعلم .

توفي هذا الشيخ رحمه الله بمدينة القاهرة سنة خمس و ثلاثين بعد رجوعه من الحج ، أتانا خبره بدمشق. و في هذه السنة جاءنا الخبر بأن الكفار من الترك ، و هم التاتار خذلهم الله ملكوا مدينة إربيل و فعلوا فيها ما هي عادتهم في البلاد التي أخذوها قبل ، و كان دخولهم أيضا في التاسع و العشرين من شوال سنة أربع و ثلاثين ، ثم هزمهم الله وشردهم على يدي عسكر الخليفة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر .

و فيها : في الساعة الأولى من يوم الاثنين الخامس و العشرين من ذي القعدة سنة أربع و ثلاثين و ستمائة ولد لي مولود سميته محمد، وكنيته أبا الحزم، جعله الله مباركا ذرية طيبة ، ثم مات في أواخر جمادى الأولى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة ، و له ثماني سنين و نصف رحمه الله .

و في هذه السنة : توفي جماعة من الملوك منهم: ملك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، و منهم صاحب بلاد الروم علاء الدين في خامس شوال.

وانقطع الحاج هذه السنة من ناحية العراق ، و خرج الحاج من الشام، و جرت عليه نكبة شديدة من جهة العطش بأرض بسيط قبل وصولهم سجر (١٢٥) بنحو ثلاث مراحل

ثم دخلت

سنة خمس و ثلاثين و ستمائة

ففي رابع المحرم منها توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، و دفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل إليها ، و تولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها: توفي الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكي النحوي فجأة ، رحمه الله و رضي عنه .

و في أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق ، و فيها الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، حاصره الكامل أخوه و ابن أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر ، فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست و عشرين ، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة ، و أقل غلاء ، و لم تطل مدته فإن الصلح جرى في أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء ، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذي فتحت فيه آمد . كل ذلك يوم الأربعاء

و في يوم الأحد الآتي بعد يوم الصلح توفي خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي ، قلت: و توفي الدولعي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة ، و دفن بجيرون في مدرسته التي أنشأها ، و تولى مكانه في التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، وولي الخطابة بعده الكمال بن طلحة في أواخر شعبان .

و فيها : في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة توفي القاضي

شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازي ، و دفن من الغد في الجبل، و قد بلغ من العمر ستا و ثمانين سنة أو نحوها ، و كان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و شيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله و رضي عنه ، و لقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا ، عالما بمذهب الشافعي مفتيا فيه ، تولى القضاء ببيت المقدس ، ثم بدمشق مرارا.

و في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لا تصلى في المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد ، و هو خطيب الجامع، و أبطل ما عداه من أئمة الحنفية ، و الحنابلة و المشهدين و ذلك لما كان في إمامتهم من التشويش على المصلين في صلاة المغرب ، لأنهم يسرعون في الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات ، لأنهم يكونون فيها متروين .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفي ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي بن الحسن بن الحسن ابن أحمد الكلالي الدمشقي بمصر ، و كان فقيها ، فاضلا من أهل بيت علم دمشقي الأصل ، و كان قد ولي التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

و فيها : يوم الجمعة سادس رجب توفي أمين الدين بن قوام ، و كان من خيار عدول البلد ، و أصله من الرصافة ، و فيها: ليلة الخميس الثاني و العشرين من رجب توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و كانت مدة ملكه بدمشق شهرين و نصف تقريبا ، و كان بينه و بين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر و سبعة عشر يوما ، فسبحان من لا يزول ملكه ، و دفن بقلعة دمشق إلى

أن بنيت تربته جوار الجامع شماليه بين دويرتي السمساطي (١٢٦) ، ونقل إليها ليلة الجمعة الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وستمائة ، و تولى دمشق و الديار المصرية بعده ولده العادل . وكان نائبه بدمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن العادل بن أبي بكر بن أيوب ، و تولى بلاد الجزيرة ، و ديار بكر ، و ربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد .

وفيها : في سادس شعبان توفي القاضي زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي ، عرف بابن الأستاذ بحلب ، وهو قاضيها يومئذ بعد القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد الموصلبي رحمه الله ، و كان فاضلا ، علما ، رئيسا حسن السميت و الخلق عفيفا قدم دمشق مرات و كان أبوه من الصالحين .

و فيها : في خامس ذي القعدة توفي القاضي شمس الدين يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولة ، قاضي قضاة دمشق يومئذ ، و دفن بالجبل ، و كان كبير السن و له جنازة حفلة ، حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب مصلى باب الفراديس رحمه الله ، و كان تولى القضاء بالقدس الشريف قديما ، ثم تولى نيابة القضاء بدمشق مرات من قبل الزكي الطاهر بن علي ، و من قبل الجمال عبد الصمد بن الحرساني ، ثم وليه شركة مع الشمس الخوئي مدة ، ثم عزل وولي العماد عبد الكريم بن عبد الصمد بن الحرساني ، ثم عزل ابن الحرساني وولى ابن سني الدولة استقلاللا ، فلم يزل قاضيا حتى توفي في التاريخ المذكور ، و تولى بعده استقلاللا شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي ، فعدل جماعة من أهل البلد منهم كاتب هذه الأحرف أي منشيء ، الكتاب ، تولى الخوئي يوم الاثنين سابع ذي القعدة المذكورة . و فيها : توفي الشيخ أبو العباس بن القسطلاني بمكة شرفها الله تعالى و دفن بالمعلاة رحمه الله .

و فيها : تولى كمال الدين بن طلحة الخطابة بجامع دمشق و خطب
يوم الجمعة الحادي و العشرين من شعبان. و في آخر سنة خمس قبض
على الصفي ابراهيم بن مرزوق ، و استصفي جميع ماله ، و أودع
السجن، ثم نقل إلى سجن حمص ، و انقطع خبره إلى جمادى الأولى
سنة تسع و ثلاثين و ستمائة ، ثم إنه أخرج من سجن حمص و قدم إلى
دمشق .

وفيهما: قدم دمشق أبو الفضل جعفر الهمداني ، من أهل الاسكندرية
من أصحاب السلفي و سمع عليه بها.

ثم دخلت

سنة ست و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبي بكر بن أيوب ، وبالأراضي المقدسة و أعمالها الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و بالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : توفي شيخ أصحاب أبي حنيفة بدمشق جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السيد البخاري ، المعروف بالحصيري، و كان رحمه الله مسنا فقيها دينا متواضعا، مولده ببخارى في جمادى سنة ست و أربعين وخمسمائة ، و قدم دمشق فتولى تدريس النورية في سنة إحدى عشرة، و كان بها الشريف داوود بعد برهان الدين مسعود ، و توفي ثامن صفر من هذه السنة و دفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق ، و بني قبره بحجارة، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع المعمور، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله .

و فيها : في السادس و العشرين من صفر توفي بدمشق الشيخ أبو الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمداني المقرئ المحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي ، و كان قدم دمشق في صحبة الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب ، و بلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة، و دفن بمقابر الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان التفليسي رحمهما الله، حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر ، و شيعته إلى المقبرة المذكورة المطللة على وادي بردى ، و كنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله سنة كنت بها، و هى سنة ثمان و عشرين و ستمائة في آخرها ، ثم رأيته بدمشق و أجاز لي و لولدي محمد و فاطمة رواية جميع مروياته.

وفيها: في السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حموية ، قفز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق، فقتله أحدهم ، و دفن في الغد بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته إلى مسرح سوق الخيل والغنم، وكانت له جنازة حفلة ، و كان من بيت علم و تصوف و إمرة رحمه الله ، و كان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري ، ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بدمشق .

وفيها : في مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، و استوزر الصاحب جمال الدين علي بن حريز ، و حاصر حمص و قصد الديار المصرية.

و فيها : توفي السيد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصي إليّ في حق ولده عبد الله، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، و دفن على أبيه بباب الصغير، و كان حج سنة عشر و ستمائة صحبة والدي رحمه الله. وهي حجة والدي الأولى من أربع حججات، و مولده على ما رأيته بخط عمي أبي القاسم رحمه الله، قال: ولد أبو الفتيان بن الشيخ الأمين السيد أبي القاسم بن عبد الرزاق في العشر الأول من رجب سنة ثلاث و تسعين وخمسمائة . وفي الليلة المذكورة حج والده إلى مكة حرسها الله.

وفيها : يوم الجمعة سابع و عشرين جمادى الآخرة توفي الصاحب جمال الدين علي بن سلامة بن البطين بن جرير الرقي ، و كان وزيرا للأشرف ، ثم وزر للصالح بن الكامل ، و دفن بمقابر الصوفية .

و فيها ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ما ذكره

المشايع ، بلغت غرارة الحنطة خمسة و عشرين دينارا بالمصرية ، و ذلك مائتا درهم و خمسة و عشرون درهما ، و زاد رطل الخبز الخرجي على درهم ، و جميع أنواع المطعومات غلت ، ثم إن الأسعار أخذت في الارتخاء في أواخر هذه السنة و الحمد لله تعالى.

وفيها توفي الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي بحمة رابع عشر رمضان ، جاءنا خبره إلى دمشق، وكان رحمه الله معتنيا بعلم الحديث ، مفيدا لأصحابه ، متواضعا أقام بدمشق سنين كثيرة بمسجد فلوس و غيره ، و كان شيخ الزاوية بمشهد ابن عروة في الحديث ، ثم سافر في هذه السنة إلى حلب ، فلما رجع إلى حماة توفي رحمه الله.

ثم دخلت

سنة سبع و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب،
و بمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين.

ففيها : في أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد
الله بن صابر السلمي . عرف بابن سيده، من أهل بيت كبير من دمشق
من أهل العلم و الحديث و التصوف ، و صحب الشيخ عتيقا و غيره
رحمه الله ، كان يخضب ، و ليلة عاشوراء مات التقي محمد بن طرخان
ابن أبي الحسن الصالح الحنبلي، و كان من المشهورين برواية الحديث

وفيهما: توفي الضياء بن الأثير بالمورقة من بغداد و هو مرسل إليها،
وهو صاحب «المثل السائر» و «الوشى المرقوم»، و كان قد وزر للأفضل.

وفيهما : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق إلى تربته شمالي
الجامع ، في ليلة الجمعة الحادي و العشرين من ربيع الأول .

وفيهما: يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر قدم دمشق صاحب
بعلبك و حمص الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي،
والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، فدخلا بعسكر و
جند عنوة من غير حصار ، و في الغد ملكا القلعة ، و خربت بذلك دار
الحديث الأشرفية وغيرها من الدور و الحوانيت تحت القلعة، و كان
بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب، وكان
أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس في عسكر له، تقدم أوله إلى غزة
على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه
جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده، و رجعوا إلى دمشق و بقي في جمع

قليل ، فأخذه ابن عمه الناصر بن داوود بن عيسى بن أبي بكر فسجنه بقلعة الكرك إلى أواخر رمضان من هذه السنة ، فأخرجه الناصر واتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذها و قبضا على العادل بن الكامل ، وكان دخولها مصر في ذي القعدة من هذه السنة ، ثم رجعوا إلى دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين و أربعين و ستمائة .

وفيها : توفي في المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبي النجم بن البطريق الشاعر الجزري الأديب ، و له شعر حسن فائق رحمه الله .

و فيها : في شهر رجب المرجب توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي بحمص ، و جاء الخبر إلى دمشق ، و عمل له العزاء بها بجامع دمشق في الحادي والعشرين من رجب رحمه الله

وفيها : توفي بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضي القضاة بالشام يومئذ شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوئي الشافعي بالمدرسة العادلية، و دفن من الغد بجبل قاسيون، حضرت دفنه و الصلاة عليه ، و كان مولده سنة اثنتين و ثمانين وخمسة فيا قرأته بخط ولده محمد ، و كان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا ، كثير الانصاف ، عالما فاضلا في علوم متعددة جمة ، محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا إلى الناس ، و كانت له جنازة حافلة، وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندي بخطه فقلت فيه:

أحمد بن الخليل أرشده الله

لما أرشد الخليل بن أحمد

ذاك مستخرج العروض وهذا

مظهر السر منه والعود أحمد

و من لطفه ما قاله بالمثلثة الشرقية من اجتماع الفقر و القناعة أنه

قال : ما أقدر على إمساك المناصب ، و تولى القضاء بعده بدمشق والتدريس بالمدرسة العادلية رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجيلي الشافعي ، و كان قاضي بعلبك قبل ذلك لكن ظهر منه سوء سيرة و عسف و فسق و جور ومصادرة في الأموال لا سماحه الله .

و فيها : في العشر الآخر من ربيع الآخرة تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالأمانة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ، مفتي الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامع البدعة . قلت ذكر العز بن عساكر في المياومات أنه تولى ابن خلكان خطابة دمشق في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستائة والله اعلم. وفي ربيع الآخر يوم الأحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوي مع الفرنج على غزة و قتل ابن علكان .

و فيها : توفي العلم العطار الإشبيلي المحدث ، و كان فاضلا دينيا في شوال من هذه السنة ، و الصفي بن المركب في يوم واحد ، و دفنا بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنهما و الصلاة عليهما .

و في سادس عشر ذي القعدة في شهر حزيران في أيام المشمش ، جاء مطر عظيم نهارا جرت منه سيول عظيمة هدمت كثيرا من الحيطان والبيوت ، و كنت يومئذ بأرض المزة .

و فيها : توفي بمكة الفقيه علي الطبري خطيب مكة ، و إمام المقام رحمه الله تعالى .

ثم دخلت

سنة ثمان و ثلاثين وستائة

في خلافة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب .

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق ، و أنكر ذلك عليه شيخا الشافعية و المالكية بدمشق ابن عبد السلام ، و أبو عمرو ، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب ، و سجننا بقلعة دمشق ، و تولى الخطابة بجامع دمشق ، و التدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داوود ابن يوسف المقدسي الشافعي .

و فيها في ثاني عشر ربيع الأول توفي الملك المظفر أبو الخطاب تقي الدين عمر بن الملك الأجدد صاحب بعلبك بأرض نوى ، و حمل إلى دمشق ، و دفن بتربة والده و جده بالشرف الشمالي ، و كان له نظم حسن كأبيه ، ذكره القوصي في معجمه .

وفيهما : في ثالث عشر ربيع الأول توفي والدي رحمه الله و دفن على أبيه بباب الفراديس ، و فيها : في الثاني و العشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي و اسمه : محمد بن علي بن محمد بن العربي ، أبو عبد الله الطائي الحاتمي ، قرأته من خطه و ذكره الزيني في تاريخه ، و دفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة ، و شيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، و كانت له جنازة حسنة ، و له تصانيف كثيرة ، و كانت عليه سهلة ، و له شعر

حسن ، و كلام طويل على طريق التصوف و غيره ، و هو من بلاد
الأندلس ، طاف البلاد شرقا و غربا ، و أقام بمكة مدة

و في ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحي حلب .

و فيها : أسمعت ولدي محمدا الحديث في مستهل ذي الحجة من هذه
السنة .

وفيهما : توفي القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح
المقدسي الشافعي ، المعروف بابن الحنبلي بدمشق في يوم الجمعة سادس
شوال سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بجبل قاسيون ، حضرت
الصلوة عليه بجامع دمشق ، و كان شيخا فاضلا ، دينا عارفا في علم
الخلافة وفقه الطريقة ، حافظا للجميع بين الصحيحين للحميدي،
وكانت له رحلة طويلة في طلب العلم إلى بلاد خراسان و العراق، وكان
متواضعا حسن الخلق رحمه الله ، و كانت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن
يونس بن بدران المصري ، و أحمد بن الخليل الخوئي ، و عبد الكريم بن
أبي الفضل الحرستاني ، و يحيى بن هبة الله بن سني الدولة ، و عبد
العزیز الجيلي إلى أن مات ، و درس بالمدرسة العذراوية ، و الصارمية
و الحسامية ، و الصالحية .

و فيها : توفي الشيخ سالم المغربي الهكوري الهيلاني ، هيلان نجد من
قبيلة هكورة ، المقيم ببيت الأبار ، و دفن بها في الرابع و العشرين من
ذي الحجة ، و كان من الصالحين .

و في آخر هذه السنة و أول التي بعدها ظهر نقصان المياه من السماء
و الأرض، نقصت الأنهار، و نقصت الأبار و هلك الزرع و الثمار.

ثم دخلت

سنة تسع و ثلاثين و ستائة

في دولة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ، وعلى الأرض المقدسة الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب

ففيها : توفي العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغوري ، و كان شيخا مسنا ، عدلا ، مرضيا ، فقيها رحمه الله ، و ذلك في عاشر شهر صفر المظفر . و في ذلك اليوم أيضا توفي العفيف عرب بن عمر بن علي الشافعي ، و دفنا في مقبرة باب الصغير بعد صلاة الظهر ، حضرت دفنهما والصلاة عليهما .

و فيها : في نصف ربيع الآخر توفي المعلم الذي كان بمكتب جاروخ جوار المدرسة العادلية ، و كان يروي الثمانين للأجري عن الحافظ أبي الطاهر السلفي سماعا ، و قرأها لابني فسمعها عليه بقراءتي ، و كان شيخا ، أدبيا ، شاعرا ، له شعر لا بأس به ، رحمه الله .

و فيها : في الثالث و العشرين من شهر جمادى الأولى توفي المجد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعي ، و دفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

و فيها : وصل إلى الديار المصرية شيخنا عز الدين بن عبد السلام ، وحصل له من سلطانها الصالح بن الكامل قبول عظيم على ما بلغنا ، وتولى الخطابة و القضاء بمصر .

و فيها : توفي الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي

بجبل قاسيون في رابع شوال ، و كان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبي علي الحداد ؛ و عنده عن أبي سعيد الصفار ، عن الفراوي ، أنه سمعت ولدي عليه من الطريقتين من ثاني شوال، ثم توفي بعد الغد منه رحمه الله.

و فيها : توفي بالموصل الشمس بن الحباز النحوي الضرير في سابع رجب المرجب ، و الكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان رحمهما الله ، و كانا فاضلي بلدهما في فنهما.

و فيها: توفي بدمشق عبد الواحد الصوفي الذي كان قسا راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفي شيخا كبيرا بعد أن أقام بخانقاة السمساطي أياما ، و دفن بمقابر الصوفية، وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله.

و فيها : في يوم عرفة تولى قاضي القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ و جمع له بين الخطابة و القضاء ، و ذلك بعد وفاة القاضي شرف الدين الموقع ، ثم عزل نفسه مرتين و انقطع في بيته .

ثم دخلت

سنة أربعين و ستائة

في خلافة المستنصر أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر

و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب، و بمصر أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر .

ففيها : في سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف، واسمها : بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، و في ليلة وفاتها كان وقف تربتها و المدرسة بالجلبل .

وفيهما : توفي الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن، يعرف بابن الدجاجية، و يعرف جده بابن أبيه، توفي ليلة الأحد الخامس و العشرين من المحرم، أحد الرواة عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر محدث الشام، سمع منه و هو ابن خمس و نحوها، سمعت منه أنا وولدي محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم و مروياته بسماعه لها منه و لله الحمد . و في ثالث عشر صفر توفي كمال الدين بن أحمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأرض غزة، و كان مقدم العساكر الصالحية يومئذ ، جاءنا خبره إلى دمشق

و في يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين و ستائة خطب بدمشق للإمام المستعصم بالله أحمد بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور، لوفاة أبيه ، و عقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله .

و فيها توفي زين الدين أبو زكريا المالقي بمدينة غزة رحمه الله، و كان أديبا فاضلا ، و أسمعت عليه ولدي محمد صحيح مسلم .

و فيها : توفي يوم الجمعة سبلخ رجب الشيخ الزكي أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي القرشي، و دفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه و جده، حضرت الصلاة عليه و شيعته إلى قبره رحمه الله ، و كان شيخا، مسندا صالحا ، و لم يخلف بعده من يروي عن الصائين بن أبي الحسن هبة الله ابن الحسن بإجازة، ولا من يروي عن أخيه الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن مثله في الكثرة . سمعت عليه أنا وولدي أبو الحزم محمد ، و أم الحسن فاطمة أشياء من آمالي الحافظ و غيرها ، و لله الحمد .

ثم دخلت

سنة إحدى وأربعين وستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم ، سهل الله عودها إلى المسلمين .

و فيها خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ثم قطع ذلك من السنة المذكورة .

وفيها : في سابع عشر ربيع الآخر توفي الشمس بن المنجي و اسمه : أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجي الحنبلي قاضي حران قديما ، و كان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية ، و تولى خدما ديوانية في الأيام المعظمية ، و كان يروي عن أبي المعالي بن صابر . و القاضي الشهرزوري ، وابن أبي عصرون ، اسمعت عليه ولدي محمدا عنهم .

و فيها : في ثامن عشر ربيع الآخر توفي الشيخ أبو البركات ميمون الزموري المغربي الضرير ، و كان من عباد الله الصالحين ؛ فاضلا عالما بعلم الطريقة ، حسن المحاضرة ، و صلي عليه بجامع دمشق و دفن بجبل قاسيون شمالي مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم ، و تعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة ، حضرت الصلاة عليه رحمه الله .

وفيها: توفي العز بن المنجي أخو الشمس في ذي القعدة من السنة ، و دفن بمدرسته بالجبل ، ففيها : في خامس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الحافظ تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر

الصريفيني رحمه الله و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه
بجامع دمشق و شيعته إلى باب الفرديس ، و كان عالما بالحديث دينا ،
متواضعا رحمه الله ، سمع عليه ابني محمد .

و فيها : توفيت الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب في
خامس عشر جمادى الآخرة . سمع عليها ابني محمد صحيح البخاري
وغيره ، بقراءتي و قراءة غيري .

و فيها : في الحادي و العشرين من رجب توفي المخلص عبد الواحد
ابن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال العدل الدمشقي بها ، و كان
أحد أصحاب الحافظ أبي القاسم ، و توفي بجبل قاسيون سمع عليه
ابني محمد أجزاء بقراءتي عليه و قراءة غيري .

و فيها : يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على
أعوان القاضي الرفيع الجليلي الظلمة الأرجاس ، و كبيرهم الموفق حسين
ابن عمرو بن عبد الجبار الواسطي ، المعروف بابن الرواس لا رحهم
الله و سجنوا ثم عذبوا بالضرب ، و العصر ، و المصادرات ، و لم يزل
ابن الرواس في الحبس و العذاب إلى أن فقد في أواخر جمادى الأولى من
سنة إثنتين و أربعين و ستمائة ، و بلغني أنه أخرج ليلا و خنق عند تل
اليهود و النصارى و رمي ثم ، و في يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة
تحقق صرف هذا القاضي الظالم و عزله ، ثم أخرج من داره و سجن
بالمدرسة المقدمة باب الفرديس ، ثم أخرج ليلا و ذهب به فسجن في
مغارة افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره ، و ذكروا أنه توفي لا رحمه
الله ، فمنهم من قال : ألقى من شاهق ، و منهم من قال : خنق ، و في
يوم الجمعة الآتي الخامس و العشرين من ذي القعدة قرىء منشور
ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن علي بن يحيى القرشي بالجامع في
الشباك الكهالي .

ثم دخلت

سنة اثنتين و أربعين و ستائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها : توفي شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الله بن حمويه رحمه الله في سادس صفر ، و دفن على أبيه في مقبرة الصوفية ، حضرت دفته و الصلاة عليه بجامع دمشق و كانت له جنازة حفلة ، و كان رحمه الله سخيا ، متواضعا ، عالما ، فاضلا ، دينا صحيح الاعتقاد . سمع الحافظ أبا القاسم بن عساكر ، و الفقيه مسعود النيسابوري و أبا الفرج الثقفي ، و أبا طاهر الخشوعي و غيرهم ، سمعت عليه أنا و ابني محمد كثيرا و أجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

و فيها تحقق موت القاضي الظالم الوضيع الملقب بالرفيع ، و أعوانه على ما سبق ذكره .

و فيها : مات جماعة من أصحابنا و معارفنا منهم : الكمال مسعود بن أحمد الحوراني الفقيه الشافعي ، توفي في خامس جمادى الأولى ، و دفن في مقبرة الصوفية ، و بعده بيومين توفي الشمس محمد بن الجابي ، و دفن بمقبرة الصوفية أيضا ، حضرت دفتها و الصلاة عليهما رحمه الله تعالى .

و في هذا الشهر من السنة المذكورة كسرت الأفرنج لعنهم الله و من انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان و غزة ، و و عنم منهم أموالا عظيمة ، و أسر من الفرنج خلق من ملوكهم و كبرائهم ، و قتل منهم مقتلة عظيمة ، و ذهب برؤوس المقتلين و المأسورين إلى مصر ، و وقع الرعب في صاحب دمشق فتهايا للحصار و خرب رباعا كثيرة حول البلد ، و غرقت المساكن التي على حافة بردى

بين جسري بابي توما و السلامة بسبب خراب جسر باب توما و سده
فرجع الماء وارتفع وصار بهجرا، فوقع ماكان، على حافته، والله
المستعان .

قلت : كانت هذه الوقعة بين عسكر مصر و مقدمه ركن الدين
بيبرس الصالحي ، و بين عسكر الشام و مقدمه المنصور صاحب حمص
و معهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى .

وفيهما : في نحو النصف من شعبان توفي الجهم سليمان بن عبد
الكريم ابن اخت عبد العزيز الشيباني ، و الشمس أحمد بن محمد بن
عمارة البرجي ، رحمهما الله .

و فيها : في خامس شهر رمضان توفي تاج الدين أبو العباس أحمد بن
شيخنا القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي
رحمه الله ، و دفن بالجبل ، و كان خيرا متواضعا ، فاضلا ، أمينا ثقة ،
سمع جده هبة الله بن محمد بن جميل ، و أبا عبد الله محمد بن علي بن
الحسن بن صدقة الحراني و غيرهما ، و أجاز له الحافظ أبو طاهر السلفي ،
قرأت لولدي محمد عليه أشياء من ذلك ، فسمعها عليه ، و حضرت
الصلاة عليه بجامع دمشق ، صلى الإمام عليه ؛ و على المؤذن المعروف
بديك العرش ، مؤذن بيت المقدس في ساعة واحدة . و كان هذا المؤذن
مسنا ، و ابتلي بمرض طويل رحمه الله ، و قبره بمقابر الصوفية . و مما
سمعه ابني محمد على الشيرازي المذكور صحيح مسلم ، بسامعه من
الحراني ، عن أبي عبد الله الفراوي ، عن الفارسي ، عن الجلودي ، عن
ابراهيم ، عن مسلم .

ثم دخلت

سنة ثلاث و أربعين و ستائة

في خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و مدينة دمشق يومئذ محاصرة ، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة ، وقد اجتمع و استولى عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوازمية وغيرهم ، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج ، و الشاغور ، و استولى الحريق على مساجد و خانات ، و دور عظيمة و من ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، و كان جامعا تقام فيه الجمعيات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق و رميت به بين باب الجابية و الصغير ، و نصبت أيضا مجانيق داخل البلد ، و ترامى الفريقان ، و أمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس ، و باب السلامة ، و باب الفرج ، و أحرق حكر السماق خارج باب النصر ، و اشتد الغلاء ، و عظم البلاء و زادت أوقية الخبز على نصف درهم ، و بلغ التبن أن يبيع كل أوقية بقرطاس ، ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع الأول .

وفيها : في يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر توفي صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهري رحمه الله ؛ و كان فاضلا ، خيرا ، متواضعا مفضلا ، مفيدا ، حريصا على تحصيل المسموعات ، رحل في طلب الحديث ، و سمع و حصل الأصول ، ثم توفي رحمه الله ، و دفن بالجبل صلينا عليه بجامع دمشق و شيعناه إلى داخل باب الفرج ، ولم يمكن الخروج لوجود الحصار المذكور ، ثم توفي بعده في سادس شهر ربيع الأول القوام الأصبهاني ، و كان كاتباً ، فاضلاً ، شاعراً ، و المعين الأرموي ، و كان شيخاً ظريفاً ، معمرًا في ثامن ربيع الأول ، ثم توفي في ثالث عشر ربيع الأول المنتجب الهمذاني المقرئ بالمدرسة الزنجيلية رحمه الله و كان مقرئاً مجوداً ، قرأ على الشيخ أبو الجود بمصر ، و انتفع بشيخنا أبي

الحسن في معرفة قصيدة الشاطبي ، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، و جحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، فالله يعفو عنا و عنه ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفي في الثالث و العشرين منه التاج الأبهري الصوفي ، وكان من أهل الحديث ذوسماعات كثيرة و بخطه طباقات جمّة ، و نسخ كثيرة من كتب الحديث والفقّه أسمعت عليه ابني محمدا وله إجازة .

وفي ذلك اليوم مات الصفي القاريء إمام الجنائز ، و قبلها بيوم توفي الناصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفي الشيخ حسن الصقلي القرزاز ، و كان من المشهورين بالصلاح كل ذلك في ربيع الأول،

و توفي في ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزماري رحمه الله ، و كان شيخا ، صالحا، فقيها، مشهورا ، من أصحابنا الشافعيين ، متضلعا في نقل وجوه المذهب و فهم معانيه . وهو أحد من قرأت المذهب عليه في صباي، و كان كثير الحج و الخير ، وقف جميع كتبه و فيها مصنفات جليّة تقبل الله منه ، و هو الذي ذكره شيخنا أبو الحسن في خطبة تفسيره و أثنى عليه و كان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير ، و في أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

و في يوم الاربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشيخ الفقيه الامام مفتي الشام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، و حمل على الأصابع إلى الجامع فصلي عليه بعد صلاة الظهر ، و كانت على جنازته هيئة ووقار ، و جمع متوفرا، رقة شديدة و إخبات و خشوع ، ثم خرج به إلى باب الفرج ، و رجع الناس بسبب الحصار ، و خرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية فدفن

بها رحمه الله ، و انضاف إليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب الفرج . و منه استفدت علمي الحديث والفقه صغيرا و كبيرا ، و سمع عليه ابني محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقي ، و غير ذلك .

و بعده بيومين توفي التقي أحمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي ، بجبل قاسيون . و توفي قبله بنحو من شهرين ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبد الغني ، و كانا من أئمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، و كان أبو سليمان من الصالحين ، و في جمادى الأولى توفي شرف الدين بن قريش بدمشق ، و القاضي الأشرف بن الفاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، و في ثالث جمادى الأولى لما فتحت دمشق توفي العز محمد بن تاج بن الخيشي شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبي الحسن وأعزهم عليه رحمه الله ، شهدت الصلاة عليهما و شيعتهما إلى داخل باب الفرج ، و ذهب به إلى الجبل ، و بابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

و في خامسه يوم الجمعة توفي الشيخ المسند تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة ، كان مسند وقته ذو ساعات جمّة صحيحة ، و أصول جليّة . و كان متواضعا خيرا دينا رحمه الله .

سمعت عليه أنا وابني محمد كثيرا ، سمع من عبد المنعم الفراوي ، وأبي البركات الخشوعي ، و أبي الفرج الثقفي . و الحافظ أبي محمد ، وعبد الوهاب بن سكينه ، و ابن طبرزد ، و حنبل ، و القاضي أبي القاسم . وأبي اليمن الكندي و غيرهم ، حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صلاة الجمعة ، و شيعته إلى باب الفرج ، و كانت له جنازة حفلة ، و حمل على الأيدي ، و دفن بجبل قاسيون عند أبيه و أخيه . و في ثامنة تحقق الصلح و زال الحصر عن البلد ورحل ليلتذ عن دمشق سلطانها

الصالح إسماعيل بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وصاحبه المنصور إبراهيم بن أسد الدين إلى بعلبك و حمص ، و دخل البلد من الغد في تاسع الشهر نائب صاحب مصر و هو الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين ، و نزل في دار سامة و هي الدار المعظمية الناصرية . و زال الخوف و الظلم عن البلد و المصادرات و الوجل، جعله الله فتحا مباركا برحمته .

و في يوم الجمعة آخر جمعة في الشهر توفي ولدي أبو الحزم محمد جمعني الله و إياه في الجنة ، و دفنته عند امه بمقبرة ابن زوزان المجاورة لمقبرة الصوفية على حافة الطريق إليها رحمها الله و إيانا ، وأنا كنت قابله و غاسله و بلغ من العمر ثمانين و نصفا ، و سمع من كتب الحديث و أجزاءه و من سائر العلوم شيئا كثيرا على جملة من المشايخ نحو مائة و أربعين شيخا ، ثم توفيت أخته زينب بعده بأربعة أيام، و في ثالث جمادى الآخرة توفي الشهاب محمد بن علي بن منصور اليمني المعروف بابن الحجازي رحمه الله ، و كان من فضلاء الشبان . هو و أبوه من أصحاب شيخنا أبي الحسن المختصين به ، و دفن بجبل قاسيون، و لم أشهده لأني كنت مريضا

و فيها : ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة توفي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله علامة زمانه ، و شيخ عصره و أوانه بمنزله بالتربة الصالحية، و صلي عليه بعد الظهر بجامع دمشق ، ثم خرج بجنازته بجمع متوفر إلى جبل قاسيون ، فدفن بتربته التي هي في ناحية تربة بني صصرى خلف دار ابن الهادي ، حضرت الصلاة عليه مرتين بالجامع ، و خارج باب الفرج ، و شيعته إلى سوق الغنم ، ثم رجعت لضعف كان من أثر مرض قريب العهد ، و كان يوما مطيرا، و في الأرض وحل كثير ، و كان على جنازته هيبة ، و جلالة ، و رقة ، و إخبات ، و ختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ ، و فقد الناس بموته

علما كثيرا، و منه استفدت علوما جمة ، كالقراءات و التفسير ، وعلوم فنون العربية ، و صحبته من شعبان سنة أربع عشرة ، و مات وهو عني راض، و الحمد لله على ذلك رحمه الله و جمع بيننا و بينه في جنته أمين .

و في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفي الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردي ، و الشيخ أيوب المعروف بالمرابحي، والعماد علي بن الحجة الحنفي ، و الصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم، واصلينا على الجميع جملة بعد الظهر بالجامع، وشيعت جنازة الزين الكردي إلى نحو باب الصغير رحمهم الله، ثم توفي خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة، و الضياء محمد بن عبد الواحد ، و الضياء محاسن ، والسيف أحمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفي الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة ، و هو : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، و في ليلة ثامن عشر شعبان توفي الفخر محمد بن عمرو بن عبد الكريم الحميري، عرف بابن المالكي الساكن بالمنارة الشرقية في بيت أبي جعفر ، و دفن من الغد في مقبرة الصوفية رحمه الله .

و فيها: توفي النجم بن سلام ، و كان متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس في سنة اثنتي عشرة و ستمائة ، و دام عليه و له احسان و خير ، و صدقة و تعصب ، و ضيافة ، و في شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث و أربعين و ستمائة توفيت صاحبة ربيعة خاتون ابنة نحم الدين أيوب ، أخت صلاح الدين و العادل و غيرها من الملوك، وعمه الكامل ، و الأشرف ؛ و المعظم و غيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب إربل رحمهم الله ، و دفنت بتربتها بالجبل . و توفي فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج و دفن بمدريته التي وقفها بمسكنه بدار الفلوس.

و في السابع و العشرين من شهر شعبان توفي الفقيه الشيخ الصالح
علاء الدين بن الكردي عمر بن أبي بكر بن جعفر ، و كان جاري
بالمدرسة العادلية ، و دفن بمقابر ابن زوزان حضرت دفنه و الصلاة
عليه رحمه الله، و في ليلة الأحد الثاني و العشرين من شهر رمضان توفي
بدمشق الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه،
و كان نائب السلطنة بها ، و هو الذي فتحها للمك الصالح أيوب بن
الملك الكامل ، و أخذها من عمه اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب
صاحب بعلبك ، و صلى عليه بجامع دمشق جمال الدين بن محيي الدين
ابن الجوزي ، و دفن بالجبل عند أخيه عماد الدين عمر بن شيخ
الشيوخ، رحمه الله ، و مولد معين الدين في سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة،
و في يوم الجمعة العشرين من رمضان توفي شرف الدين محمد بن القاضي
شرف الدين أبي طالب عبد الله بن زين القضاة ، و دفن بالجبل، و في
ثاني شهر شوال توفي الأمير نجم الدين القيمري عمر بن ناصر الدين،
و دفن بالجبل .

و فيها : اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات ، ففي ثامن
عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية نصفها بثلاثمائة
درهم ، و بيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت
الأخبار ، والله يكشف هذا الضر برحمته ، و كان ذلك في تاسع شهر
آذار و بقيت الصعاليك مرميين في الطرقات ، و كانوا يطلبون لقمة ، ثم
صاروا يطلبون فلسا يشترون به نخالة يبلونها و يأكلونها كما تطعم
الدجاج ؛ و شاهدت ذلك بعيني ، ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك
فبلغ في آخر شهر شوال المذكور كل غرارة حنطة بمائة دينار سورية،
ثم ناصرية ، ثم سمعت أنه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم و كتب
بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين ، و اشترت أنا الخبز كل رطل
بأربعة دراهم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة فبيع
الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم ، و خبز الشعير كل أوقيتين و نصف

بدرهم، و بلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفا و مائتي درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، و بيع الدقيق كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل خمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، و الزبيب كل أوقيتين بدرهم ، ثم بيع أوقية و نصف بدرهم، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها و قد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية ستة عشر قرطاسا، فقال بعض السامعين : كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية ، و اليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا ، و يبيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم و ربع ، و الرز باللبن ثلاث أواق و نصف درهم ، و الأرز اليابس كل أوقيتين ، و الفحم الردي كل رطل بستة دراهم ، ولم تنزل الأسعار في اشتداد و ارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها، و بلغت الغرارة ألفا و خمسمائة درهم، و بيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم يوم عيد النحر و قبله ؛ ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، و لم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين ، واللحم كذلك، وفي سلخ المحرم بيع كل رطل و ثلث بدرهم ، و في جمادى الآخرة رطل و نصف بدرهم.

ثم دخلت

سنة أربع و أربعين و ستائة

أولها يوم الجمعة كسرت الخوارزمية أشد كسرة و قتلت ملوكهم ، وسبيت نساؤهم ، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص ، و كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، و معه جيوش حلب و حماة و غيرها من البلاد ، و جاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثاني الشهر إلى دمشق ، فبيع الخبز كل رطل بدرهم و نصف ، و الحمد لله على هذه النعمة ، و نسأله المزيد بفضلله ، ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . و ممن قتل في تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية ، و سلطانهم و حمل رأسه إلى حلب .

و في حادي عشر صفر توفي الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق و نقل إلى حمص . و قبله بأيام توفي الضياء محمد بن حسان بن رافع العامري بقصر حجاج ، و كانت له ساعات كثيرة بالحديث ، سمع الخشوعي ، و الحافظ أبا محمد ، و أبا اليمن الكندي ، و القاضي أبا القاسم ، و أبا حفص بن طبرزد ، و حنبلا و غيرهم ، و سمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفي الركن بن سلطان الحنفي ، و القاضي شرف الدين الحنفي الخوراني ، و الكمال ابراهيم بن البانياسي ، و غيرهم في العشر الأسط من صفر

و في ثامن عشر ربيع الأول توفي العز الإربلي عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر إمام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر ، و حمل إلى مقابر الصوفية ، و كان شيخا حسنا مسنا مكثرا عن أبي طاهر الخشوعي ، و أبي محمد ، و أبي اليمن الكندي ، و أبي حفص بن طبرزد ،

و أبي القاسم القاضي، و فاطمة بنت سعد الخير و غيرهم، اسمعت عليه ابني محمداً كثيراً من الكتب و الأجزاء .

و في ربيع الآخر توفي الفقيه الحنفي المعروف بالعز عرفة، مدرس الصادرة، و المجد بن البعلبكي، و الجمال بن البلان، و في أول جمادى الآخرة توفي الحكيم سعد الدين الطيب، و بعده بثلاثة أيام توفي البدر العلائي الأشرفي الخادم، و في الخامس و العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه الإمام تقى الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي الحنبلي رحمه الله و دفن بالجبل، حضرت الصلاة عليه، و شيعته إلى خارج باب الفرج؛ و كان عالماً؛ فاضلاً، ذا فنون و لي به صحبة قديمة، و بعده لم يبق في مذهب أحمد مثله بدمشق .

و في رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزيني أخو ابنتي من أمها جعله الله موفقاً سعيداً، و في أول شعبان توفي الضياء عبد الرحمن المالكي العمادي الذي جلس مكان الشيخ أبي عمر، و في حلقتة بالجامع، و في زاوية المالكية و مدرستهم رحمه الله، و كان كريماً شاعراً، و قبله الأمير عماد الدين داوود بن موسك بن جكر، و جاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهيل رحمه الله بحلب، و كان فقيهاً ديناً كريماً سليم الصدر، و توفي في ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكوراني المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفي، و جمال الدين محمد القلعي، و المخلص أبو بكر بن حماد الحنبلي، و في ذي القعدة توفي الناسخ أحمد الصيداوي المشتغل بعلوم الفقه و الحديث و الرقائق .

و في تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، و كان يوماً عظيماً بكثرة الخلق و الزينة، و نزل عندنا بالمدرسة العادلية الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل

ابن عبد الجبار ، يعرف بابن أبي الحجاج المقدسي ؛ و صهره الأمير العالم
الفاضل شمس الدين بن الجناح فأقام بها خمسة عشر يوما ، ثم رحل
إلى بعلبك فكشفها ، ثم رجع و مضى نحو صرخد و تسلمها من
صاحبها عز الدين أيبك المعظمي، و رحل إلى بلاد بانياس و تسلم
حصن الصبية من الملك السعيد بن العزيز بن العادل و هو ابن عم
السلطان و في خدمته ، ثم تسلم حصن الصلت من ابن عمه داوود بن
عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و فرق بدمشق نحو تسعين ألف درهم
على الفقراء ، فخان فيها المفرقون ، فنظمت فيهم قصيدة نحو اربعمائة
بيت في شرح حالهم فيها .

ثم دخلت

سنة خمس و أربعين و ستائة

أولها يوم الاربعاء ، فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، و أبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، فجاء الخبر بفتح طبرية في عاشر صفر من هذه السنة ، و جاء الخبر بفتح عسقلان في أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفي النظام عبد الله بن زين الأمان بن عساكر ، و في العام قبله توفي أخوه الركن عبد اللطيف و كان متزهدا ذا وسواس .

و فيها : عزل الخطيب عماد الدين داوود بن خطيب بيت الأبار من خطابة جامع دمشق و إمامته و من التدريس بزوايته الغربية، وولي ذلك القاضي عماد الدين عبد الكريم بن الحرساني ، و ذلك في أواخر رجب، و في سلخه توفي المجدد بن نظيف ، و في شعبان توفي الشمس ابن هلال، و في رمضان توفي الكمال علي بن يعقوب الدولبي القاضي الشافعي، و كان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة و بها توفي . قلت : وجدت بخط الدولبي المذكور أنه علي بن يعقوب بن اسحاق ابن عبد الله بن أبي الحسن - هو كردي - الجوزقاني، رحمه الله تعالى ، و كان شيخا في الفقه .

و في رمضان توفي الشيخ علي المعروف بالحريري ، المقيم بقصرية بصر في زاويته ، و كان يتردد إلى دمشق ، و تبعه طائفة من الفقهاء و هم المعروفون بالحريرية ، أصحاب الزي المنافي للشريعة ، و باطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، و كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة و التهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كثير ، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء

دمشق، و صاروا على زي أصحابه ، و تبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم ، و الرقص و المردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثرة النفقات فأضل خلقا كثيرا. وأفسد جمعا غفيرا ، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ، ثم أراح الله منه.

ثم دخلت

سنة ست و أربعين و ستمائة

ففيها : استولى صاحب حلب على حمص .

و في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركي صبي بالغ ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعي السقسقيني زعموا أنه قتل سيده لأمر ما ، فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب ، و جعل وجهه مقابل الشرق ، و سمرت يداه ، وعضداه ، ورجلاه ، و بقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ، ثم مات ، وكان يوصف بشجاعة ، و شهامة ، و دين و أنه غزا بعسقلان و قتل جماعة من الفرنج ، و قتل أسدا على صغر سنه و كان منه في صلبه عجائب ، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع ، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه و هو ينظر لم يتأوه و لم يتغير وجهه ، ولا حرك شيئا من أعضائه ، أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة ، و بقي إلى أن مات صابرا ساكنا لم يئن ؛ و لم يزد على نظره إلى رجلية وجانيه ، تارة يمينا و تارة شمالا ، و تارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسقى ؛ وتألمت قلوب من عندهم رحمة و شفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير ، و قد ابتلي بمثل هذا البلاء ، و المياه تندفق بجوانبه ، و هو ينظر إليها ، و يتحسر على قطرة منها ، و هو صابر على ذلك فسبحان من له الأمر والحكم ، و أخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة و نور غشاه قبل موته ، و أن شكواه للعطش كان في أول يوم ثم سكن ذلك ، فقواه الله تعالى وثبته و صبره ، و أخبرني من سمعه يقول في اليوم الثاني : سقيت البارحة ما أذهب عني العطش ، ثم لم يطلب الماء حتى مات ، و صار يبصق بصقة رجل ريان الكبد ، حذف بها بعيدا ، و بقي بعد موته معلقا تمام يوم الأحد و أنزل ضحوة يوم

الاثنين من الغد ، رأيته اتفاقا و أنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله، فشاهدته و قد اسودت أعضاؤه ، وغيرت محاسنه و كثر الترحم والدعاء له . و لعله كان شهيدا رحمه الله ، فإني أخبرت أنه دافع عن نفسه أمرا لم يرض وقوعه به و الله يغفر لنا أجمعين، و منها : أنه أسرع إليه الموت تخفيفا من الله تعالى عليه ، فانه بقي يومين و ليلتين . وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة في عذابهم ، و كان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال فلم يبق يحس بالألم و العطش ، و لم ينتظم كلامه بل صدرت منه ألفاظ دالة على اختلاله ، خفف الله تعالى بذلك عنه ، قد كان يغفى أحيانا، ثم يتتبه مرعوبا لشدة الألم فتقطع لذلك قلوب الناظرين إليه ، غير أنه يذكر الله تعالى .

و أخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله في غداة يوم الأحد أو السبت ، و كان جوابه أن قال : طيب مع الله ، و بلغني لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة ، و ذلك أن الذي سمره لما وضع المسمار في العضد صادف العظم ، فقال له : يا فتى تجنب العظم، وبلغني ان الذي سمره توفي في ذلك اليوم أو الذي بعده ، و هذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبي بذلك إرادة اعلامه ان الله تعالى جازاه بفعله . فقال الصبي و هو في تلك الشدة : هو في حل لا ذنب له ، لكن الذنب لمن أمره بذلك، و كان رحمة الله من أجمل الصبيان و أحسنهم وجها وأطولهم شعرا، قد كان ثمنه ألوفاً من الدراهم ، و كان في قتله مكشوف الرأس و الذؤابة من شعره مسترسلة خلفه ، و لعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقي يتناولها يولع بها و يتشاغل بالعبث بها ، و بلغني أنه قال: لي يومان ما صليت كالتأسف على ما فاته من الصلاة ، و بعضهم قال يوم علقوه كان صائها، و أخبرني من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، و كانت له نفس

أبية ، و قوة شديدة، أخبرني جماعة أنه كان يحرك رجله و هما مسمرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى ان اتسع نخش المسارين عليهما و صار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة و مما قيل فيه :

ومتفرد من فوق أعواد حنفيه
يجود بنفس صانها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق
سجودا فأومأ للسجود بقلبه
تمكنت الآلام منه مسمرا
كثييا وكان الموت أيسر خطبه
يرى واحدا والناس من حوله جذعة
وعطشان والأمواء تجري بتحتيه
في أحسرة منه على شرب قطرا
لقد طار ذيك الشراب بلبه
وعريان إلا في غلالة حسنه
ومكشوف رأس سائبات برحبه
تجول رياح الجوفيه وتعصف السـ
وإفي عليه كل ترب بقربه
وتشرق شمس الصيف من حروجه
لقد زال ذاك الحسن مذ أشرقته به
مغيرة تلك المحاسن إذ غدا
أحق بها منه فنادت بحربه
فيالك ممنوعا من الماء ضلة
تفتت الأكباد من عظم كربه
ويالك مصلوبا بظلم وقسوة
تقطعت الأحشاء من سوء صلبه
ويرد في الليل البهيم فيشتكي
نهارا فلا يسلى المقرب بذنبه

فيا عجباً ممن أشار بصلبه
ألا اعجب وأخبر عن قساوة قلبه

صبي صغير فائق الحسن ناسك
شجاع له الاقدام في يوم حربته
صبور على هذي الشدائد كلها
إلى أن أتاه الموت قاض لنجبته

و في سنة ست و أربعين و ستمائة سقطت قنطرة عظيمة رومية،
كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدم بسببها حوانيت
ودور كثيرة كانت عليها و متصلة بها وقعت نهاراً، و في ليلة الأحد
الخامس والعشرين من رجب وقع الحريق في المئذنة الشرقية بجامع
دمشق فأحرق أعلاها و جميع ما فيها من البيوت و المطلع جميعه ، فإنه
كان سقالات من خشب، و سلم الجامع بفضل الله تعالى و رحمته،
وبعده بأيام يسيرة قدم السلطان الصالح أيوب بن الكامل مدينة دمشق
فأقام بها و جهز العساكر إلى حمص .

و في شعبان توفي القاضي عز الدين محمد بن أبي الكرم الحنفي
السخاوي ، و كان نائبا في الحكم زمن الجمال المصري قاضي القضاة إلى
أن مات . و في الخامس من شهر رمضان توفي بمصر الأفضل الخوارجي
قاضي قضاة مصر ، و كان حكيما منطقيا ، و كان الحديث عنه في مدة
ولايته القضاء حسنا ، سمعت الشيخ ابن أبي الفضل و غيره يثني عليه
في ذلك ، رحمه الله . و جاءنا الخبر في ذي القعدة أن الشيخ أبا عمرو
عثمان بن الحاجب رحمه الله توفي بالاسكندرية في شعبان ، فساء ذلك
من سمعه من البرية فإنه رحمه الله كان ركنا من أركان الدين في العلم
والعمل ، بارعا في العلوم الأصولية و تحقيق علم العربية ، متقنا لمذهب
مالك بن أنس رحمه الله ، و كان من أذكى الأمة قريجة ، و كان ثقة
حجة متواضعا ، عفيفا ، كثير الحياء منصفا ، محبا للعلم و أهله ناشرا

له، محتملا للأذى ، صبورا على البلوى . قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مدرسا للمالكية ، و شيخا للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية ، ثم خرج هو و الشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر ، و كان خروجهما من دمشق سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و أخبرني صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دفن خارج الاسكندرية في المقبرة التي بين المنارة ، قرب قبر الشيخ ابن أبي شامة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة سبع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل مقيم بها ، قدم إليها في أول شعبان من سنة ست فأقام بها خمسة أشهر ورحل منها يوم الاثنين رابع المحرم طالبا الديار المصرية، و أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع ، و هي التي احترقت فعمرت على ما هي عليه الآن، وفي ذلك العام وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى إليها في البحر ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، و استشهد من المسلمين جماعة منهم النجم ابن شيخ الاسلام ، و دخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائبا للسلطنة في عاشر ربيع الأول منها، و نزل بدرج الشعارين ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين و دخول الفرنج خذلهم الله إليها في البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤونة والاقامة . و جرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج ؛ ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول قرأت فيه : وصل الفرنج في العشرين من صفر، نزلوا في الحادي و العشرين إلى البر، وفي الثاني و العشرين أخلت دمياط، و دخلها الفرنج و هم فيها إلى الآن.

و في ربيع الآخر توفي العدل صفي الدين عمر بن محمد بن عبد الوهاب يعرف بابن البرادعي ، و كان أحد من يروي عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله ، و توفي فيه أيضا الشيخ اسماعيل مقدم الخدام النبوية ، و جاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة رحمه الله، وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازي الزاهد المقيم بالمسجد الذي بين القصاعين و الفسقار (١٢٧) رحمه الله وشهد جنازته خلق كثير ، و حمل على أيدي الرجال و أصابعهم، وكان

على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعد الظهر بالجامع و شيعته إلى المقبرة بين باب الجابية و باب الصغير رحمه الله، و عبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد ، و شاهد ما أحدث من الحوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع ، فأمر بإزالته و الاقتصار على الصفيين المجاورين للحائطين من الجانبين ، و كان قد أزيل ذلك مرة أخرى في زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم رد بعد ، ثم أزيل هذا الوقت المذكور و الله تعالى يجري الخير على يد من يشاء من عباده .

و فيها : شرع في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض ، و في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب و أخفي بها ، و أرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا و هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب فتنكر و قدم مع النجابين على زعيم و عبر على البلاد ، و لم يزل ملوك الأطراف حوله حتى وصل عانة و عدا الفرات ، و دخل البرية ، و دخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من رمضان ، فنزل بالقلعة و أقام بها و أحسن إلى أهلها، ثم سافر إلى مصر يوم الاثنين في السادس و العشرين من شوال فوصل المنصورة ثامن عشر ذي القعدة ، و بها عساكر المسلمين سحرا في قبالة الفرنج الذين استولوا على دمياط ، و قبل وصول السلطان بأيام ركب الفرنج و حملوا على المسلمين سحرا على غرة فدهمهم في بيوتهم و خيامهم و تفرقوا في أزقة المنصورة و بين بيوتها ، و أيقظ الله تعالى المسلمين فاجتمعوا عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة منها ألف و خمسمائة فارس، و لم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا.

و فيها : قتل فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ و هو آخر أخوته موتا، و قتل أيضا صاحبنا الشيخ الفاضل ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ختم الله له بالحسنى، وهي

الشهادة على ما كان فيه من فضل و تواضع، و لم ألق أحدا يعرف علم التاريخ مثله، و حصل كتباً عظيمة و كانت له همة عظيمة في تحصيل الكتب، و الفوائد و الفضائل إلى آخر عمره رحمه الله، و قدم دمشق مرات في زمان شببته و حياة والده، و في زمان شيخوخته، و كان قدم بغداد و سمع العلامة تاج الدين الكندي، و أبا حفص عمر بن طبرزد، والقاضي أبا القاسم الحرستاني و غيرهم و أنشدني لنفسه و لغيره .

ثم دخلت

سنة ثمان و أربعين و ستائة

ففي ثاني المحرم، و هو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه ابن الصالح بن الكامل الفرنج الدين كانوا استولوا على دمياط، و حاصروه بالمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها و أسر قريب من ثلاثين ألفا و أسر ملك الفرنسيس، و أخوه و جماعة من خواصه كانوا اختفوا في منية عبد الله من ناحية شار مساح فأخذوا برقابهم، و في سادس عشر المحرم وصل إلى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، فلبسها و رأيتها عليه و هي أشكر لاط أحمر، تحتها فرو سنجاب، و فيها بكلة ذهب، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا، كل مقطعة بيتين في مدح السلطان و الأمير أحدهما:

إن غفارة الفرنسيس التي

جاءت جباء لسيد الأمراء

بياض القرطاس في اللون لكن

صبغتها سيوفنا بدماء

و الثانية مخاطبة للأمير:

يا واحد العصر الذي لم يزل

يجوز في نيل المعالي المدى

لا زالت في عزو في رفعة

تلبس أسلاب ملوك العدى

و الثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السلطان:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم

تنجزت من نصر الإله و عوده

فلأزال مولانا يبيح حمى العدى
ويلبس أسلاب الملوك عبيده

و في العشرين من المحرم دخل الناس كنيسة مريم بفرحة و سرور،
ومعهم مغاني و مطربون فرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسة ، و بلغني
أن النصارى يبعليك سودوا و سخموا وجوه الصور في كنيستهم حزنا
على ما جرى على الفرنج ، فعلم الوالي فجناهم جناية شديدة، وأمر
اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم .

و في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الخبر بقتل المعظم توران
شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليز الخيمة، بعد مده
السيماط ضرب بسيف فانهزم ودخل برج الخشب فأحرق، فرمى نفسه الى
ناحية النيل فأدرك و قطع ثم بقرية فارسكور، وكان ذلك من غلمان ابيه
البحرية واستبدوا بالامر بعده، وامروا عليهم أم ولد لأبيه الصالح،
وأخبرني من شاهد قتله انه ضرب اولاً فتلقى الضربة بالسيف فجرحت
يده، واختبط الناس، وذلك بعد فراغهم من الاكل على السماط، فأظهر
ان ذلك من بعض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقيين باتمام الامر فيه،
وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها . فركبوا ولبسوا السلاح واحاطوا
بخيمته وبرجه الخشب لانه كان في الصحراء بإزاء الفرنج، خذ لهم الله،
فدخل البرج خوفاً منهم، فأمروا زرقاً باحراق البرج، فامتنع فضربت
عنقه، ثم امروا زرقاً اخر فرمى البرج بنفط فأحرقه، فخرج من بابه
وناشدهم الله في الكف عنه والاقلاع عما نعموا عليه، وطلب تخلية
سيده، فلم يجب الى شيء من ذلك، فدخل في البحر الى ان وصل الماء
الى حلقه فرجع فضره البندقاري بالسيف فوقع في الماء ثم ضربه
بالسيف ضربة اخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت ابط اليد الاخرى
فوقع قطعتين، وكان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقي مكانه ذلك

اليوم والغد الى ليلة الاربعاء ونقل الى الجانب الاخر من النيل مجروراً بطرف ثوبه في الماء، فحفر له في الرمل ودفن وتغيب قبره، فانظر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين، كيف اتفقتا في شهر واحد احدهما في اوله: وهي الكسرة العظمى الذي استأصلتهم * والثانية: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع *

واخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والي القاهرة، كان أبوه: أنه لما قتل رمي في جرف على حافة البحر، واردم عليه التراب، فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل الى الجانب الاخر من البحر، فدفن هناك *

وحكى قصة قتله عجباً وهو: انه جر في الماء بصنارة، والجار له راكب في مركب، والصنارة بيده تجره في الماء كأنه حوت الى ان عدا به الى الجانب الآخر فدفنه هناك، فكان قتله والناس في غفلة وبهتة من أمرهم، وعوجل فلم يجد ناصرأ، ولقد حكى لي المذكور انه بقي يستغيث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الدين ادركني، وتكرر ذلك فركب في أمره و كلمهم فيه ، فتركوه وخوفوه من القتل وخرق حرمة الخلافة فرجع، فلما فرغ من قتله نادوا: لابأس، الناس على ما هم عليه انها كانت حاجة فقضيناها، واستبدوا بالامر، وامروا عليهم عز الدين أيك التركماني الملقب بالملك المعز صاحب الديار المصرية وهو واحد منهم * ورجعوا الى القاهرة وكاتب امراء الشام باتباعهم فجرت في ذلك فصول استقرت آخرأ على ان قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بني أيوب مع سلطانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله، لأخذ البلاد، والانتقام ممن افسد هذا الامر، وقتل السلطان، فنزلوا على الغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر، وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبي مدينة دمشق ضحوة النهار، وفي يوم الاربعاء عاشر الشهر، دخل السلطان، وأمن الناس، وأزال عنهم البأس، وهو الملك الناصر صلاح

الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير
المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، ثم ارسل الى
القلاع المجاورة لها فسلمت كبعلبك، وبصرى، وصرخد، واعمالها، ثم
سلمت عجلون والسلط، وتقدمت العساكر الى صوب غزة، وامتنع
حصن الكرك والشوبك بالمغيث بن العادل بن الكامل، وكان قبل ذلك
في حبس الصالح أيوب بن الكامل بحصن الشوبك وأطلق في أيام هذه
الفتنة وتسلم الحصنين، وبلغني انه طلب فأبى وخاف مما جرى على ابن
عمه المعظم بن الصالح، ثم سار الملك الناصر يوسف لأخذ الديار
المصرية، ووصل سلخ شوال الى العريش، وخرج اليه عسكر الترك
الذين بمصر، فوقعت بينهم وقعة بسموط بين الخشبي والعباسة فانهمز
منها العسكر المصري ونهب، ثم انقطعت منهم طائفة، وانهمز الشامي
وذلك في ذي القعدة وسلم السلطان، وفقد جماعة كثيرة من اقاربه
وأمرائه بين قتل وأسر وهرب، ووصلوا إلينا في أواخر الشهر، وممن قتل
ضياء الدين القيمري، وشمس الدين لؤلؤ، وحسام الدين القيمري،
وتاج الملوك، وأسر المعظم، والنصرة ابنا صلاح الدين، والصالح بن
العادل، والاشرف بن المنصور بن أسد الدين، ثم خلص المأسورون وفقد
الصالح اسماعيل ليلة الاحد عشرين ذي القعدة سنة ثمان واربعين
وستائة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسةائة .

وفي تاسع عشر من ذي القعدة توفي المجد الاسفرائيني قارىء دار
الحديث الأشرفية من أول ما فتحت والى الآن، وهو: أبو عبد الله محمد
ابن محمد بن عمر بن الصفار من أهل بيت كبير باسفرائين، وكان
المجد رحمه الله من اهل العلم والدين مقيماً بخانقاه السيمساطي، سمع
المؤيد الطوسي وغيره، حضرت جنازته والصلاة عليه ظاهر باب النصر،
ومضوا به الى مقابر الصوفية رحمه الله، ورجعت لأنى كنت ناقهاً من
مرض، والحمد لله على العافية، وعلى كل حال .

وفي الثالث والعشرين من ذي القعدة توفي عندنا بالمدرسة العادلية بدمشق الشيخ الصالح العالم أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي الضير الاندلسي الاشبيلي رحمه الله، وكان ساكناً بالبيت الملاصق لباب السقاية وكان رجلاً صالحاً تقياً، ففاضلاً في علوم شتى، مقبلاً على شأنه مشغلاً بأوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصوفية، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان ذلك بعد العصر من يوم الخميس، ورد من الاندلس في سنة إحدى وعشرين وستمائة في البحر، فأسرتة الفرنج، ثم نجاه الله منهم، ووصل الى الديار المصرية وحج وجاور وسافر الى بلاد اليمن، ثم ورد مكة، ومنها الى الشام، وسكن دمشق وقرأ بها القرآن، وحفظ التنبيه في مذهب الشافعي، وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الملك الباصر يوسف بن محمد
ابن غازي بن يوسف بن أيوب

ففيها : توفي سعيد بن عبد الله بن جهير القرشي ، صاحبنا في ربيع
الأول ، و نجم الدين عثمان بن عمر المراغي ، الشيخ الصالح ، في ربيع
الآخر و دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله .

و فيها مات الموفق الخوئي في خامس شعبان و دفن بالجبل ، و فيها:
في الثاني و العشرين من ذي القعدة توفي الحسام أبو بكر الحموي
الواعظ، بلغ الحسام نيفا و تسعين سنة ، و في ذي الحجة مات الشيخ
شمس الدين محمد بن عبد الكافي الربيعي ، و كان قد درس بالكلاسة و
الأمينية ، و ناب في القضاء مدة بدمشق و حمص ، و دفن بالجبل .

و فيها : ولدت ابنتي رقية في جمادى الأول بالنصف منه ، و فيها :
فرغ اسماعي التاريخ و الروضتين .

و فيها : مات بالديار المصرية خطيب القاهرة الشيخ بهاء الدين علي
ابن هبة الله ، و كان أولا معيدا لشهاب الدين الطوسي بمنازل ، و درس
بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر ، و هو ابن بنت الفقيه أبي الفوارس
ابن الجميزي رحمه الله ، و كان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفي
بالشام و مصر . و من شهدة ببغداد.

و فيها مات صاحبنا العفيف يعقوب المهيني بمنية ابن خصيب،
وكان قاضيها و مدرستها ، و فيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم
بمسجد باب الزهومة رحمه الله.

ثم دخلت

سنة خمسين و ستائة

ففيها: توفي الرشيد بن مسلمة في ثامن عشر ذي القعدة و دفن بالجبل.

و فيها : توفي بمصر ابن مطروح ، و في الثالث و العشرين من ذي القعدة توفي الشريف عدنان ، و الفقيه كمال الدين اسحاق بن أحمد المقرئ المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، و كان رحمه الله جامعا بين العلم و العمل ، زاهدا ، مؤثرا ، متواضعا حسن الأخلاق ، و دفن عند قبر شيخه تقي الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلي بدمشق.

ثم دخلت

سنة احدى و خمسين و ستائة

ففي سادس المحرم توفي الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد الخطيب زمليكا رحمه الله ، و كان فاضلا ، عالما ، خيرا ، متميزا في علوم متعددة ، و تولى قضاء صرخد ، و درس ببعلبك ثم توفي بدمشق ، و دفن بمقابر الصوفية رحمه الله .

و فيها : في شوال توفيت ابنتي رقية رحمه الله و عمرها ستان وخمسة أشهر و دفنت بمقابر الصوفية عند قبر أبي الزهر خال أمها ، و كان أبوه الخطيب يعني أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم ، هو ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن أحمد بن خليل بن حسن بن سعيد الأنصاري السماكي ، توفي الخطيب المذكور في ذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين وستائة ، و هكذا وجدت في تاريخ وفاته ، وقيل في سنة خمس وثلاثين وستائة .

ثم دخلت

سنة اثنتين و خمسين و ستائة

ففيها : توفي السديد بن علان ، و هو آخر من روى عن الحافظ أبي القاسم سماعا بدمشق.

و فيها : توفي بحلب النصره بن صلاح الدين ، و الشيخ كمال الدين ابن طلحة و كان فاضلا ، عالما ، تولى القضاء ببلاد بصرى ، و الخطابة بدمشق ، ثم طلب لمنصب الوزارة فأيقظه الله تعالى ، و زهد في رئاسات الدنيا ، و تزهد و انقطع و حج في هذه السنة ، و لما رجع من الحج أقام بدمشق قليلا ، و سمع عليه فيها رسالة القشيري ، ثم سافر إلى حلب فتوفي بها في السابع و العشرين من رجب من السنة المذكورة رحمه الله ، و فيها : توفي فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق.

و قتل بمصر فارس الدين أقطاي الذي تغلب على البلاد و قهر أهلها، و تقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس ، و استقر ملك الديار المصرية لأبيك التركماني ، و يلقب بالملك المعز .

و فيها : توفي العفيف أحمد الصيداوي ، و كان شيخا مشغلا بالبحث في أخبار النبي صلى الله عليه و سلم ، و الفقه ، و كتب الرقائق إلى أن مات رحمه الله في شعبان . و فيها : توفي الكمال بن تميم ، و فيها : في رابع شوال توفي الناصح فرج بن عبد الله الحسيني المعروف بفتى الشيخ أبي جعفر ، رحمه الله ، و كان يسند ، كثير السماع ، خيرا ، صالحا ، مواظبا على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية .

- ٩٣٤٩ -

و فيها : في الخامس و العشرين من شوال توفي بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، و كان شيخا نبيها، فاضلا، متواضعا حسن الظاهر .

ثم دخلت

سنة ثلاث و خمسون و ستائة

ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سنقر بن يحيى رحمه الله، و كان فاضلا، دينا ، ورعا و من شعره
من ادعى أن له حاجة
تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا
فإنه ضرب بالانفع

و له معجم حكى فيه عن شيوخه و عمل فيه بعض الفضلاء :
كم معجم طالعه مقلتي فبدا
للحظها منه فضل غير منقوص
فلا سمعت ولا عاينت في زمني
أتم في فضله من معجم القوصي

قلت : طالعه فرأيت فيه أغاليظ كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها،
وأول ذلك في نسب نفسه بأنه انتسب الى سعد بن عبادة الأنصاري،
وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت، وإنما هو عبادة بن دليم،
و عبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا، وصحف في سند خرقة
التصوف حبيبا أبا محمد حسينا كل ذلك بخطه .

وفيهما: يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفي الشهاب القوصي
بدمشق أبو العرب اسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري، ودفن
بداره بالقرب من الرحبة، وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله. وكان
ظريفاً حسن المحاضرة.

وفيها : في الثالث والعشرين من شوال توفي الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ، ولجده ذكر في تاريخ دمشق رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لي ولد ذكر وأمه قريشية من بني عبد الدار بن قصي فأسميته أحمد، وكنيته أبا الهدي جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله، ومن مصر بموت العباس بن ثابت المقرئ.

ثم دخلت

سنة أربع وخمسين وستمائة

ففيها: توفي الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله، وكان زاهداً، خيراً من كبار الناس ونبلائهم، وكان في أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس، فانتفع بالعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مصحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيهما: في ربيع الآخر توفي الزكي بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة، وفي غد يوم السبت توفي الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد ابن ابراهيم المقدسي الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه التقى بن الصلاح، ودفن في أول مقابر الصوفية في ثامن الشهر المذكور، وبلغني أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائبا عنها رحمه الله. وكثر موت الفجأة في تلك الأيام فمات بها جماعة منهم: مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمي وغيره.

وفيهما: توفي صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله، وتوفي أبوه قبله بالديار المصرية، ثم نقل الى تربته في القبة التي بناها بمدرسته التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالي، وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديماً بدار ابن منقذ.

وفيهما: ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة، ثم انجلى، وكسفت الشمس في غده احمرت وقت

طلوعها وقريب غروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور والله تعالى على كل شيء قدير، واتضح بذلك ماصوره الشافعي رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد واستبعده أهل النجامة.

وجاء الى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة، وكتبت الكتب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان.

وفي أول يوم رمضان شنت العز الخلاطي نفسه. في بيته بالمدرسة العادلة، أعادنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الأبل ببصرى»، فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوءها الكتب، قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجا ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها، وإنما كانت آية من آيات الله تعالى، وهذه صورة ماوقفت عليه من الكتب الواردة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها المدينة، والحيطان، والسقوف، والأخشاب، والأبواب ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبا من قرينة نبصرها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة اشعلها أكثر من ثلاث منائر،

وقد سالت أودية منها بالنار الى وادي شظاة سيل (١٢٨) الماء. وقد سدت سبيل شظاة وما عاد بسبيل، والله لقد طلعتنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسير نيرانا، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي فسارت الى أن وصلت الحرة فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا ورجعت تسير في الشرق ويخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل: (انها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالات صفر) (١٢٩).

وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستائة، والنار في زيادة ماتغيرت، وقد عادت الى الحرار في قريظة طريق غير الحاج العراقي الى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعيل الحاج، وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من قريظة، وقد زادت، وما عاد الناس يرون أي شيء بعد ذلك والله يجعل العاقبة الى خير، وما أقدر أن أصف هذه النار.

وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت وإلى الساعة لاندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة الى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين الى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة وقع صوت يشبه الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام يقع في اليوم

والليلة أربع عشرة زلزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي برأي العين من المدينة نشاهدها، وهي (ترمي بشرى كالقصر) كما قال الله تعالى، وهي بموضع يقال له أحيلين (١٣٠)، وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض، ويخرج منها أمهاد وجبال صغار يسير على الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك (١٣١)، فاذا خمد صار أسود، وقبل الخمود لونه أحمر، وقد حصل بطريق هذه النار اقلاع عن المعاصي والتقرب الى الله تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها.

ومن كتاب شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن تميلة الحسيني قاضي المدينة الى بعض أصحابه: لما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب لها المنبر الى أن أوجسنا منه صوتاً للحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلة الى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أحيلين نار مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت الى الأمير وكلمته، وقلت له: قد أحاط بنا العذاب أرجع إلى الله فاعتق كل مماليكه، ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل هذا قلت له: أهبط الساعة معنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم، والنسوان وأولادهم ولا بقي أحد لافي النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأشفقنا منها وظهر ضوءها إلى أن أبصرت من مكة ومن الفلاة جميعها، ثم سال منها نهر من نار وأخذ في وادي أحيلين وسد

الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتاً مثل الرعد ساعة بعد ساعة، وما في السماء غيم حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحره وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقمة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه عليه السلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت، والصبيان، واجتمعوا كلهم فأخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقمة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله، ومنتصل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك وهيها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً

الطريق ثم طلع الى بحرة الحجاج وهو بحر نار بحري وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الوادي وادي الشظاة، وماعاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حرة تجيء قامتين وثلاث علوها، وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدره، والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقي تسمع فيها رباب، ولادف، ولاشرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي منها الينا قتيير، وخفنا أنها تحيثنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتييرها الذي مما يلينا فقد طفىء بقدره الله سبحانه وتعالى، وإنها إلى الساعة مانقصت إلا ترمى مثل الجمال حجارة من نار، ولها دوي مايدعنا نرقد، ولانأكل، ولانشرب، وماأقدر أصف لك عظمها، ولامافيهها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها وما أصبح يقدر أن يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم الخميس من رجب وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلا كاسفين فنسأل الله العافية.

قلت: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

ومن كتاب آخر من بعض بني القاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل الينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتحترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم لما كان بتاريخ ليلة

وعرضاً، تخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منها
كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد وبقيت كذلك أياماً، ثم سالت سيلاناً
في وادي أحيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة حتى كادت تقارب حرة
العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة
خلفها وأمامها حتى بنت لها جبلين خلفها وأمامها، وما بقي يخرج منها
من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم أنها عظمت الآن وسناها إلى الآن
وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى
ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا
طرف منها كبير يكفي، والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن،
وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر حتى
قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا
لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوباً لأنطبق لها
حملاً ونحن بها حقاً أحقاء
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها
وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعا تخرج الأرض فانصدعت
عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض ارساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى
أن عادت الشمس منه وهي دهاء

قد أثرت سفعة في النار لفتحها
قليلة التتم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع السنه
بما يلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاهما بالبروج إلى
أن كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيها آية من معجزات رسول الله
— يعقلها القوم الألباء
فبإسمك الأعظم المكنون إن عظمت
منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وأمح واعف
وجدوا صفح فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف الـ
عذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ولنا
منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت
محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ما خطبت
على علمنا من الأوراق ورقاء.

ونظم بعضهم في هذه النار وغرق بغداد بيتين:
سبحان من أصبحت مشيئة
جارية في الوادي بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما
أحرق أرض الحججنا بالنار

قلت : كان ينبغي أن
ينبه على أن الأمرين في سنة واحدة، وإلا فالأغراق والأحراق يقعان

كثيراً، فالصواب أن يقال:
في سنة أغرق العـراق ووقـد
أحرق أرض الحجاز بالنار

وفيها: في ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان هذه السنة، وهي
سنة أربع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينة على ساكنها السلام،
ابتدأ الحريق من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى
خزانة ثم وبمه نار فعلمت في الآت ثم واتصلت بالسقف بسرعة، ثم
دبت في السقوف آخذة قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا
ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها، ووقعت أساطينه وذاب
رصاصها وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية
على ساكنها السلام، ووقع ما وقع منه في الحجرة، وبقي على حاله لما شرع
في عمارة سقفه وسقف المسجد، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس
ف عزلوا مواضع للصلاة وعدوا ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق
المسجد من جملة الآيات وكأنها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من
الكائنات على ما سنذكره إنشاء الله تعالى، ونظمت في حريق مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لم يحترق حرم النبي للحادث
يخشى عليه ولادهاه العار
لكنكما أيدي الروافض لامست
ذاك الجنب فطهرته النار

وقلت أيضاً لسبب السنة:

بعد ست من المئين وخمسين
لدى أربع جرى في العالم
نار أرض الحجاز مع حرق
المسجد مع غريق دار السلام

ثم أخذ التتار بغداد في
أول عام من بعد ذلك العام
لم يف من أهلها وللكفر أعوان
عليهم ياضيعه الاسلام
وانقضت دولة الخلافة منها
صار مستعصم بغير اعتصام
رب سلم ووصن وعاف بقايا
المدن يـ اذا الجلال والاكرام
فحننا على الحجاز ومصر
وسلام على بلاد الشام

وفي ذي القعدة توفي مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبي بكر بن
أيوب في يوم الأربعاء سادس عشر الشهر المذكور، ودفن بمقبرة والده
بالمدرسة العادلية.

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة توفي معين الدين محمد بن
عبد الله بن عصرون، وكان أيضاً شاباً حسناً فاضلاً متميزاً، أحد من
اشتغل عليّ رحمه الله، ومات قبله بأيام ابن عمه مجير الدين بن محيي
الدين ابن عصرون. وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث ذي الحجة توفي العز بن أبي طالب بن عبد
الغفار التغلبي، يعرف بابن الحثوي وجده لأمه هو القاضي جمال الدين
أبو القاسم الحرساني الأنصاري، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس تاسع ذي الحجة وهو يوم عرفة توفي شمس الدين
محمد بن المبارك السنجاري، وكان سخياً فاضلاً، سمع معي كثيراً من
كتب الحديث وغيرها، لما أسمعت ولدي محمداً رحمه الله. واسمه معه في

طباق كثيرة، ثم سافر إلى مصر، وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين، ثم قدم دمشق، فأقام بها نحو عامين، وتوفي رحمه الله تعالى.

وفيها: ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي الواعظ رحمه الله، بمنزله بالجبل، ودفن هناك وحضر جنازته خلق عظيم، سلطان البلد فمن دونه، وكنت مريضاً حينئذ فلم يقدر لي حضورها، ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا أنني رأيت في حالة منكرة، ورأى غيري كذلك نسأل الله العافية. ودرس بالمدرسة الشبلية مدة كان سكنه يومئذ بالتربة البدرية الحسينية قبالتها على ثورا، وكان فاضلاً، عالماً، ظريفاً منكرراً على أرباب الدولة ماهم عليه من المنكرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركوب الحمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل ونازلاً عليه إلى مدرسة العزبة بالشرف الشمالي وإلى غير ذلك، مقتصداً في لباسه، مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، منصفاً لأهل العلم والفضل مبايناً لأولى الجبرية والجهل، يأتي الملوك وأرباب الدول إليه زائرين وقاصدين، وربي طول زمانه في جاه عريض عند الملوك، والعوالم نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطرباً، وصوته فيما يورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله ورضي عنه.

وفيها: يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ بدر الدين المراغي شيخ خانقاه الطاحون، وقع به سلم من أعلاه إلى الوادي، وكان شخصاً حسناً صالحاً فقيهاً، تولى العقود مدة، والقضاء بوادي بردى، ثم انقطع في هذه الخانقاه في آخر عمره إلى أن توفي بها رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت

سنة خمس وخمسين وستمائة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميروقي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروقي الملك المشهور ببلاد الغرب.

وفيها: في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، بقرية يلدا (١٣٢) ودفن بها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلاً بالحديث سماعاً إلى أن توفي، وله نحو من مائة سنة، أخبرني أنه كان مراهقاً في سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر نور الدين بن زنكي ولده، وأنه حضر الطهور، ولعب الأمراء بالميدان في فرشة مع الصبيان، وأخبرني أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يارسول الله بالله ما أنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنت رجل جيد، أسمعت عليه ولدي أبا الحزم محمداً رحمه الله كثيراً بقراءتي عليه وقراءة غيري، وأجاز لابني أبي الهدى أحمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع ما يجوز له عنه روايته رحمه الله.

وفيها: في منتصف ربيع الأول توفي الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي رحمه الله، في طريقه من مصر إلى الشام، ودفن بمنزله بين العريش والداروم، وكان شيخاً فاضلاً متقياً كثير الحج محقق البحث مقتصداً في أموره، كثير الكتب معتنياً بالنفيس منها محصلاً لها، وقد كان أعطي قبولاً بالبلاد الإسلامية، لايجل في بلد إلا ويكرمه رؤساؤها وأهلها، وأكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام، وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين أيبك التركماني أحد مماليك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، وتلقب بالملك

المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية في أموال المسلمين ونسائهم، وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي، ثم مات هذا التركماني بداره بغتة ولا يعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركماني أنها قتلتها، فأعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل بابن له منها درج، وتلقب شجر الدر، الله يصلح أمور المسلمين، وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضي الأسعد شرف الدين الفائزي

وفي هذه السنة نظمت قصيدتين في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده:
تزوجت من أولاد دنو عقيلة

بها من خصال الخير ما حير العقلا
مكملة الأوصاف خلقاً وخلقه
فأهلها أهلها وسهلاً بها سهلاً
ولود وودود حرة قرشية
مخدرة مع حسناتها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفة
من أظرف انسان وأحسنهم شكلا
صبور شكور حلوة وفصيحة
ومتقنة أي تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها
وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر
قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقظى أدبية
موافقة قولاً وفعلاً فما أعلا

صغيرة ســــن في الكــــلام كبيرة
نهاها يري بالهاا الحلم والجهلا
يشرن عليها بالتفرج مرة
فتأبى وقعر البيت في عينها أحلى
مدارية للأهل إن عتبت وإن
أجبت فلا عقد لديها ولا غلا
رقية قلب مع سلامة دينها
فلمست ترى شبها لها في النساء أصلا
خدوم بقلب في جميع أمورها
مباشرة لكل مادق أو جلا
ملازمة للشغل في البيت دائما
على صغر من سنهالا تنى فعلا
مطرزة خياطة ذهبية
مفصلة خطاطة تحكم الغزلا
تنقل في الأشغال من ذا وذا وذا
وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسلا
وما ذاك من عدم فلم يخل بيتها
من امرأة تكفي إذا شاءت الفعلا
ولكنها اعتادت نظافة شغلها
فعافت فعال الكل واحتملت فعلا
خفيفة روح مع وقار ذكية
فتفهم ما يلقي لديها وما يتلى
وان نظرت ما لم تعرفه صممت
عليه إلى أن تحتويه وما اختلا
لها همه عليا تطول روحها
على صعب الأشغال تتركه سهلا
مريية حنانة ذات رحمة
فكل يتيم واحد عندها فضلا

نفور إذا ارتابت ألوف أهلها
فمها إذا قيس النساء بها مهلا
كذلك كان الحظ لما تعرضت
له حاصلاً فيها صحيحاً وما اعتلا
سريعة دمع العين من رقعة بها
فيأبعد أن تلقى لها في النساء مثلاً
عديمة لفظ والتفات إذا مشت
صموت فلا قطعاً ترد ولا وصل
ولم ينكشف منها بنان يجار من
مشى معها في حفظها أيدها قبلاً
يعز على من يطرق الباب لفظها
جواباً فلا عقد تراه ولا حلاً
يطيل وقوفاً لا يجاب محرم
عليها كلام الأجنبي وإن قلاً
تيز حتى في الكلام فلا تری
لها لفظة إلا وقد وقعت فصلاً
ولست تری من لثغة في كلامها
فألفاظها درينضد أو أغلى
إذا بصرت ما فيه عيب لها أبت
وتفعل ما تهوى طريقتها المثل
وحافظة للغيب صالحة أتت
لحق إذا كانت مناقبها تتلى
وقانتة صوامة ومدلة
بعقل وتدبير تراه العدا بخلاً
يقر لها بالفضل في العقل كل من
يراه من النسوان ما تعرف الهزلاً
من المحصنات الغافلات فمن رمى
حصانتها يلعن وذالك به أولى

تجمع فيها عفة ونزاهة
وعزة نفس فهي تكلا ولا تقلا
وأحسن من ذاك له ان هذه
الخصائل طبع لم تكلف لها حملا
تقل نظير في نساء زماننا
فلا تعدلوني في محبتها عدلا
بنيت بها بنت الأربع عشرة
وهذه الخصال الغر في ذاتها تحلا
وأوصافها في كل عام تزايدت
ولم تتغير قسط سيرتها الأولى
وحسبك عشر من سنين لها انقضت
معني لم أقل أف لديها ولا كلا
ولقد جعلت لا غير الله ما بها
عشيرتها والأمر من بعد ذلك أعلى
فلله حمد دائم ونسائله
مزيد الذي أسدى وتتميم ما أولى
ولكن فيها انفرة وتغيضا
وسرعة غيظ عند لفظها يعلا
فوالله ما أدري أذلك مسقط
مناقبها عند الجحود لها أم لا

و خامس عشر جمادى الآخرة توفي بدمشق الشيخ أبو العباس أحمد
ابن يوسف التلمساني المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة،
وكان شيخاً معمرأ منقطعاً عن الناس محباً للعزلة، ودفن بالجبل، وكان
يروى كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي عن البرهان بن
خلوش، مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة عمل صلاة الغائب عن
الشيخ نجم الدين البادرائي هو:

أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان ابن أبي الحسن حسون، مولده يوم الجمعة بعد العصر سلخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وتوفي يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة ببغداد، ودفن قريباً من الجنيدي رضي الله عنه، درس بالنظامية وبمدرسته التي أنشأها بدمشق في موضع دار سامية، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً، فقيهاً، كريماً، متواضعاً وكان يقدم الشام والديار المصرية رسولا من قبل آخر خلفاء بغداد وهو: المستعصم بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهي مدرسة حسنة للفقهاء الشافعية، ووقف عليها ووقفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد في هذه السنة فولي قضاة القضاء بها على كره منه لذلك، وأخبرني من حضر موته ببغداد أن وفاته كانت أول يوم من ذي الحجة، ودفن بمقبرة الشونيزي وبقي في القضاء سبعة عشر يوماً، وبعد موت البادراني بأيام قلائل نزلت التاتار خذلهم الله على بغداد، والخليفة بها يومئذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضيء ابن المستنجد، واستولوا عليها في السنة الآتية كما سيأتي ذكره.

وفي ذي الحجة من هذه السنة توفي الشيخ يوسف الواسطي الأعرج المقرئ، كان بجامع دمشق تحت قبة النسرة، وكان أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان أحد الشيوخ الصالحاء الصابرين على البلاء، كان مصاباً بيديه ورجله، ومع ذلك هو مرابط على الطهارة، والصلاة، وقراءة القرآن وإيثار الفقراء، وهو من أصحاب الطائفة الرفاعية الواسطية، ومن مشايخهم بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصادرة بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله، ومات سيف الدين المشد علي بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان في تاسع المحرم.